جامعة النَّجاح الوطنيَّة
كليَّة الدّراسات العليا

عيون الماء في الأدب الشعبي الفلسطيني: دراسة تحليلية

إعداد
زين عبد العزيز محمد داود

إشراف
د. نادر قاسم

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2023

عيون الماء في الأدب الشعبي الفلسطيني: دراسة تحليلية

إعداد

زين عبد العزيز محمد داود

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2023/02/02م، وأجيزت:

د. نار قاسم	
المشرف الرئيسي	التوقيع
د. معاذ اشتية	
الممتحن الخارجي	التوقيع
أ. د. إحسان الديك	
الممتحن الداخلي	التوقيع

الإهْدَاء

إلى شمس أيامي ونجمة حياتي والقلب المعطاء

أمي الحبيبة

إلى من أفخر به وأسمو الرجل الأبرز في حياتي

والدي العزيز

إلى من أستثني (عن جميع العالمين)، كتفي وعضدي وداعمي الأول

زوجي الحبيب

إلى من كانوا خير سند لي في الشدة والرخاء

إخواني وأخواتي

إلى عائلتي الثانية المُحبة الودودة

عائلة زوجي

إلى أمل الغد وسر السعادة

أطفالي الأحباء

الشّكر والتّقدير

لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أساتذتي الأجلاء في قسم اللغة العربية في جامعة النجاح الوطنية على ما قدموه إليّ من معارف وقيم ومهارات وأساليب، كانت عونا لي في حياتي الجامعية، كما أخص بالشكر والتقدير الدكتور نادر قاسم الذي لم يألُ جهدا في توجيهي ومساعدتي، ولما قدمه إليّ من ملاحظات وإرشادات، كانت هي البوصلة نحو إنجاز هذه الدراسة، ولأعضاء لجنة المناقشة لهم مني كل الشكر والتقدير، والشكر موصول لكل من قدم إليّ يد العون والمساعدة، سواء أكان في مسيرتي التعليمية، أم في إتمام هذه الدراسة.

الإقرار

أنا الموقعة أدناه مقدمة الرسالة التي تحمل عنوان:

عيون الماء في التراث الشعبي الفلسطيني: دراسة تحليلية

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشـــارة اليـــه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالبة: نرين عبد العزيز محمد داود

التوقيع: نرين داود

التاريخ: 2023/2/2

فهرس المحتويات

الإهْدَاء ..... ج

الشّكر والتّقدير..... د

الإقرار ..... ه

فهرس المحتويات..... و

الملخص..... ح

مقدمة 1

الفصل الأول: عيون الماء في التراث القديم 6

تمهيد 6

التراث الشعبي..... 6

عيون الماء في التراث القديم..... 8

الفصل الثاني: عيون الماء في المعتقدات الشعبية الفلسطينية..... 18

تمهيد 18

عيون الماء والأرواح..... 19

عيون الماء والجن..... 22

علاقة الإنسان بعيون الماء..... 23

عين الماء والحيوان 26

عيون الماء والخصب..... 27

عيون الماء والاستشفاء 29

عيون الماء والمعتقدات الدينية 30

الفصل الثالث: عيون الماء في أشكال الأدب الشعبي الفلسطيني..... 32

تمهيد 32

أولا: عيون الماء في الأغنية الشعبية..... 33

ثانيا: الحكاية الشعبية 39

ثالثا: المثل الشعبي..... 47
رابعا: الأسطورة 51
الفصل الرابع: أبعاد صورة عيون الماء ودلالتها في التراث الشعبي الفلسطيني..... 58
البعد النفسي 58
البعد الاجتماعي 64
البعد الديني..... 70
البعد الأسطوري..... 73
الخاتمة..... 79
المراجع العلمية 83
Abstract ..... b

عيون الماء في الأدب الشعبي الفلسطيني: دراسة تحليلية

إعداد

زين عبد العزيز محمد داود

إشراف

د. نادر قاسم

الملخص

إنّ أشكال التراث الشعبي مرآة صادقة لمعتقدات الشعوب، ومن هنا لاقت اهتماما من الباحثين في دراسة ملامح الهوية، والحضارة الفلسطينية شأنها شأن باقي الحضرات، لها رصيد عريق من التراث الشعبي، الذي يشكل دالا ورمزا لهويته وجذوره الضاربة في أعماق التاريخ.

وقد عبر التراث الشعبي الفلسطيني عن الكثير من المعتقدات المتوارثة حول الكثير من الظواهر والمناسبات، ولعل أكثر تلك الظواهر ما هو متعلق بحياة الفلسطيني، وبالبيئة المحيطة به، وكان ولأشكال الماء المختلفة حضور بارز في أشكال التراث الشعبي لأهميته في حياة الإنسان، ومن تلك الأشكال عيون الماء، فقد حاك الفلسطيني حولها كثيرا من المعتقدات، ومارس بجوارها العديد من الطقوس، ومن هنا فإن هذه الدراسة تهدف إلى تسليط الضوء على عيون الماء في التراث الشعبي الفلسطيني، عبر تتبع جذور تلك المعتقدات في الحضارات القديمة، ثم تتبع حضورها في الثقافة الشعبية الفلسطينية، وفي أشكال التراث الشعبي: الحكاية والأغنية الشعبية والمثل، والتعرف إلى دلالة هذا الحضور النفسية والاجتماعية والدينية والأسطورية.

ولتحقيق الغاية من الدراسة اتبعت الدراسة المنهج الوصفي الاستقرائي، الذي يجمع بين مراجعة ما تناوله الدارسون حول أبعاد الموضوع واستقراء نصوص الأدب الشعبي وتحليلها؛ للوصول إلى استنتاجات عامة.

وجاءت الدراسة في أربعة فصول، تناول الفصل الأول عيون الماء في الثقافة الشعبية عند الحضارات القديمة، عبر تتبع الدلالات الأسطورية لها، والمعتقدات القديمة التي حيكت حولها، والممارسات الشعائرية التي مورست عندها.

وتناول الفصل الثاني عيون الماء في المعتقدات الشعبية الفلسطينية، وفيه تناولت الباحثة المعتقدات الشعبية المتأصلة في الوعي الشعبي الفلسطيني، وما انبثق منها من عادات وممارسات متوارثة، آمن بها الفلسطيني في حياته، وانعكست على أفعاله وتصرفاته في حضرة عيون الماء.

وفي الفصل الثالث تتبعت الباحثة حضور الماء في أشكال الأدب الشعبي الفلسطيني، فعرضت نماذج من الأغنية الشعبية والحكاية الشعبية والمثل الشعبي، وظفت عيون الماء في نصوصها، ومن خلال استقراء تلك النصوص سلطت الباحثة الضوء على مضامينها، وعلى المعتقدات التي تعبر عنها.

أما الفصل الرابع فقد تناولت الباحثة فيه صورة عيون الماء في الموروث الشعبي ودلالته، عبر الحديث عن الدلالات النفسية والاجتماعية والدينية والأسطورية في توظيف عيون الماء في أشكال الأدب الشعبي.

وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها: يعبر حضور عيون الماء في التراث الشعبي، وما يدور حولها من معتقدات، وما مورس حولها من ممارسات، عن الثقافة الشعبية، وقد تقاطع اعتقاد الفلسطيني حول عيون الماء مع المعتقدات القديمة، وجوهر هذه المعتقدات مرده إلى الاعتقاد بسيطرة الآلهة أو الأرواح أو الجن على عيون الماء، وهذا يفسر لجوء الإنسان الشعبي الفلسطيني إلى عيون الماء أملا في الخصب والبركة والشفاء، أو رغبة في دفع الأذى، ولضمان ذلك مارس بعض الشعائر، وبما أن التراث الشعبي ديوان الفلسطيني فقد كان صدى لتلك المعتقدات، وعبر حضور عيون الماء عن بعض الدلالات النفسية والاجتماعية والدينية والأسطورية المستوحاة من ثقافة الشعب الفلسطيني.

الكلمات المفتاحية: عيون الماء؛ التراث الشعبي الفلسطيني.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

يعبر التراث الشعبي الفلسطيني عن جوانب حياة الفلسطينيين كافة، وفي محطاتهم التاريخية المتعاقبة، فكما كان الشعر الجاهلي ديوان العرب في جاهليتهم، نتعرف منه على عاداتهم وتقاليدهم وحروبهم وطرائق تفكيرهم ونمط حياتهم وهمومهم وآمالهم، فإن الموروث الشعبي الفلسطيني يقوم بالوظيفة ذاتها، فهو مرآة صادقة في التعبير عن ثقافة الشعب الفلسطيني بكل مكوناتها وأبعادها وملامحها، لذلك فإن دراسة الموروث الشعبي الفلسطيني وتحليل مضامينه ودلالته يساعد في الكشف عن هوية الشعب الفلسطيني وسماتها وما تتميز به من أفكار ومعتقدات ونمط حضاري عن باقي الأمم والشعوب.

وينقسم التراث الشعبي إلى التراث المادي والتراث القولي، أما الأخير فمنه الحكاية والأغنية الشعبية والمثل، وتمتاز هذه الفنون الشعبية في أنها ما زالت شائعة لدى الشعب الفلسطيني، في مناسباته وأفراحه وأحزانه وحياته اليومية، كما تمتاز باتصالها بثقافة الشعب وقيمه وأفكاره، وفيها من المرونة الكافية لاستيعاب معتقداته المتوارثة، لذلك فإن تحليل نصوصها يقودنا إلى الكشف عن بقايا المعتقدات القديمة فيها، وعن مدى تطورها نتيجة تناقلها من عصر إلى عصر، سواء اعتقد بها قائلوها في الوعي أو اللاوعي.

والماء من عناصر الطبيعة المحيطة بالإنسان في كل عصر، بل من أهمها، فهو أساس الحياة، وحول أشكاله المختلفة أقيمت المجتمعات، ومن أجله خاضت الشعوب صراعات وحروبا، وقد حرص الإنسان منذ القديم على استمراره، ولم يكن أمامه سوى ممارسة الطقوس التي اعتقد بقدرتها السحرية على إرضاء آلهة الخصب والحياة، المسؤولة عن وفرة الماء والخصب، لاعتقاده بأن هناك آلهة تسيطر على أشكاله، ونظرا لأهمية الماء في حياته فقد أحاطه بكثير من المعتقدات، وصبغه بنوع من القداسة.

ولا تقل أهمية الماء عند الفلسطيني عما هي عليه في الحضارات القديمة، وتبعا لهذه الأهمية فقد ورث عن الإنسان القديم بعض المعتقدات، ومارس بعض الممارسات المتوارثة الخاصة بالماء، عن وعي بأصولها ودلالتها أو دون وعي، إلا أن الهدف ذاته، وهو الحفاظ على مصادر الماء، وضمان وفرته، صحيح أنه لم يعتقد بآلهة الخصب والماء المتعارف عليها في الحضارات القديمة، لكنه استبدل الأرواح والجن بها، وفعل من أجل رضاها ما فعله الإنسان القديم للحصول على رضا الآلهة.

وتعد عيون الماء من أهم أشكال الماء للإنسان، لوفرتها في القرى والمدن الفلسطينية، مقارنة بالأشكال الأخرى: البحار والأنهار والأودية، ولصلاحية مائها للشرب والزراعة، لذلك كان لها حضور لافت في معتقداته، التي دفعته إلى بعض الممارسات للحفاظ على استمرار جريانها، وقد انعكست هذه المعتقدات فيما صدر عنه من فنون شعبية، كونها وسيلة للتعبير عن أفكار الشعوب ومعتقداتهم.

ومن هذا المنطلق فإن هذه الدراسة تتناول عيون الماء في التراث الشعبي الفلسطيني، بهدف التعرف إلى المعتقدات الراسخة في وعي الفلسطيني الشعبي حولها، والكشف عن علاقة هذه المعتقدات بالمعتقدات القديمة، وتسليط الضوء على مدى حضورها في الفنون الشعبية: الحكاية والأغنية الشعبية والمثل، وبيان دلالة هذا الحضور، ووظائفه النفسية والاجتماعية والدينية والأسطورية.

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع ولعي الشديد بالتراث الشعبي الفلسطيني، وغناه بالمعتقدات المتوارثة، التي تعبر عن أصالة الشعب الفلسطيني وهويته وعراقته، كذلك خلو المكتبة العربية من دراسة عيون الماء في التراث الشعبي الفلسطيني، بالآلية التي تم تناول الموضوع بها، فهذه الدراسة على حد علم الباحثة هي الأولى من نوعها، فقد تميزت بأنها حاولت جمع جميع المعتقدات التي حيكت حول عيون الماء في فلسطين وتدوينها، دون حصرها بعين واحدة، وتأصيل هذه المعتقدات عبر ربطها بجذورها القديمة، ومحاولة الكشف عن دلالة حضور عيون الماء في أشكال الأدب الشعبي.

ولتحقيق الغاية من البحث استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي لنصوص الأدب الشعبي الفلسطيني، الذي يقوم على استقراء الكتب والمجلات والدراسات السابقة التي تناولت الموضوع، وعلى تحليل النصوص الشعبية قيد الدراسة.

وقد سُبقت هذه الدراسة بدراسات سابقة تناولت جزئية من مباحث الدراسة الحالية، أفادت منها الباحثة في دراستها الحالية، ومن بين هذه الدراسات:

1. دراسة عادل أبو عمشة التي تناولت (حكايات حول عيون الماء في فلسطين...عين زواتا نموذجا).
2. دراسة ميشيل كوت التي تناولت (التراث الثقافي للماء في الشرق الأوسط والمغرب العربي).
3. دراسة نضال طه التي تناولت (المعتقدات الشعبية في فلسطين).
4. دراسة إبراهيم عرفة وجمال معتوق التي تناولت (الماء بين المقدس والطقوس الممارسة...دراسة مونوغرافية في منطقة بئر الذهب تبسة).
5. دراسة أسماء أحمد التي تناولت (أساطير حول الماء وأساطيله).
6. دراسة توفيق كنعان التي تناولت (الينابيع المسكونة بالجن وعفاريت الماء في فلسطين).

وتميزت هذه الدراسة عن الدراسات السابقة بأنها تبحث في عيون الماء في التراث الشعبي، من خلال الحديث عن عيون الماء في الحضارات القديمة، وعيون الماء في الأدب الشعبي الفلسطيني بأشكاله المختلفة: الحكاية والأغنية والمثل، فهذه الدراسة لم تقتصر على لون واحد من ألوان الأدب الشعبي كما هو الحال في دراسة (عادل أبو عمشة)، كما تميزت بحصر موضوعها في عيون الماء، وما ارتبط بها من معتقدات ودلالات ووظائف في الأدب الشعبي الفلسطيني، في حين أن الدراسات السابقة تناولت بعض هذه القضايا على العموم.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أهمية الموضوع ذاته، لاتصاله بمعتقدات الشعب الفلسطيني المعبرة عن أفكاره وثقافته وتاريخه وهويته، ومن أن عيون الماء في التراث الشعبي الفلسطيني لم تحظ بالدراسة المتعمقة في دلالة المعتقدات التي حيكت حولها، وصورتها في الفنون الشعبية، فهذه الدراسة تتناول موضوعا من المواضيع الشائقة، وهو موضوع قديم معاصر يجدر أن يدرس دراسة مفصلة، كما تبين هذه الدراسة مدى اتصال الإنسان بعيون الماء من خلال أدبهم الشعبي الحكاية، والأغنية الشعبية، والمثل.

وقد عمدت الباحثة إلى تناول موضوع الدراسة في أربعة فصول، يسبقها مقدمة، وتتلوها خاتمة تتضمن أهم النتائج، حيث تناولت الباحثة في الفصل الأول عيون الماء في الثقافة الشعبية عند الحضارات القديمة، وفيه استعرضت المعتقدات القديمة حول عيون الماء المتصلة بالفكر الأسطوري في الحضارات القديمة، والطقوس التي مارسها الإنسان القديم حول عيون الماء.

وفي الفصل الثاني درست الباحثة عيون الماء في المعتقدات الشعبية الفلسطينية، وفيه عرضت أهم المعتقدات التي ترسخت في ذهن الفلسطيني حول عيون الماء، كعلاقتها بالأرواح، وعلاقة الجن بها، وتوحدها مع الإنسان، وتوحدها مع الحيوان، وعلاقتها بالخصب، ووظيفتها العلاجية، والطقوس التي مورست من أجلها.

وفي الفصل الثالث تتبعت الباحثة حضور الماء في أشكال الأدب الشعبي الفلسطيني، فقامت باستعراض نصوص من الحكاية الشعبية والأغنية الشعبية والأمثال، تعد شاهدا على هذا التمثيل بصورة مباشرة، أو من خلال الدلالات التي تحملها عيون الماء في المعتقد الشعبي.

أما في الفصل الرابع فقد تناولت الباحثة صورة عيون الماء في الموروث الشعبي ودلالته النفسية والاجتماعية والدينية والأسطورية.

وقد واجهت الباحثة في إعداد هذا البحث جملة من الصعوبات، يقع في مقدمتها قلة الدراسات التي تناولت عيون الماء في التراث الشعبي الفلسطيني رغم كثرة الدراسات التي تناولت حضور الماء بشكل عام، والجهد الكبير الذي بذلته الباحثة للعثور على نماذج من الآداب الشعبية، وظفت صورة عيون الماء، خاصة الأغنية الشعبية والأمثال، فمعظمها تناول الماء بصورة عامة، والقليل منها تعرض لعيون الماء بصورة خاصة.

وفي الختام أحمد الله حمدا كثيرا، وأرجوه أن يوفقني إلى كل ما فيه خير في الدنيا والآخرة

الفصل الأول

عيون الماء في التراث القديم

تمهيد

تتناول الباحثة في هذا الفصل مفهوم التراث الشعبي وسماته وأهميته وأشكاله، وتفرق فيه بين الثقافة الشعبية والثقافة الرسمية، ثم تنتقل للحديث عن عيون الماء في الثقافة الشعبية عند الحضارات القديمة عبر تتبع المعتقدات والممارسات الشعائرية التي مورست حولها، وربطها بالتراث الأسطوري في تلك الحضارات.

التراث الشعبي

تتصل عيون الماء، وما يدور حولها من معتقدات، وما مورس حولها من ممارسات، بالتراث الشعبي، ويعرف التراث الشعبي بأنه: "من صنع عامة الشعب، نابعة من روح الشعب ومن شعوره وضميره، لها انتشار واسع بين عامة الناس، وهي أسهل على الاستعمال والفهم والحفظ، تعبّر عن العواطف والشعور الشعبي، وهي لذلك قادرة على إلهاب عواطف عامة الشعب واستثارة هممهم"[1].

كما يمتاز بديمومتها وانتقاله من زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، كنوع من تبادل الثقافات والانفتاح بينها، كما يتسم بالعفويّة والبساطة، وفيه نوع من المحاكاة والتقليد، وكثيرٌ من رموزه مادية ظاهرة ملموسة تسهلّ التعبير عن هوية صاحبه ببساطة ووضوح، مثل الملابس الشعبية أو الأكلات الشعبية وما إلى ذلك من نواحي الحياة الشعبية، وبذلك يمكن القول إن الثقافة الشعبية هي المرآة التي تعكس ما وصل إليه العقل البشري من تطور فكري لشعب من الشعوب عبر مراحل التاريخ المتلاحقة، وتشمل كل ما أنتجته الحضارة الصادرة عنها عبر العصور[2].

---

[1] كناعنة، شريف: الثقافة والهوية. رام الله: مؤسسة مواطن، 2011، ص47.

[2] ينظر: علقم، نبيل: مدخل لدراسة الفولكلور. رام الله: جمعية إنعاش الأسرة، 1993، ص12.

والتراث الشعبي جزء من الثقافة ومعبر عنها، فهو "نتاج لتفاعل الإنسان مع الطبيعة، وتفاعل الإنسان مع أخيه الإنسان، وبالتالي فإن التراث يمثل حياة الإنسان الاجتماعية، والروحية والمعاشية"[1].

وتتمثل أهمية التراث الشعبي في أنه يمثل هوية الشعب الصادر عنه، ويعكس جانبا مهما من حياته: الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، فمن خلاله نتعرف إلى طبيعة العلاقات بين أفراده، والأعمال التي مارسها، والصفات التي اتصف بها، والقيم والعادات والتقاليد التي حافظ عليها، حتى غدت قانونا يحتكم إليه، والثقافة التي امتلكها.

ومن أهم سمات التراث الشعبي أنه تراث تراكميّ، تناقلته الأجيال، من جيل إلى آخر، ومن حضارة إلى أخرى، فمعظم ما نجده اليوم في تراثنا الشعبي له جذورا تمتد في الحضارات القديمة، ولا شك في أنّ هذا الربط بين التراث الشعبي وجذوره يكشف لنا الظروف والمناسبة والتفسير الذي أحاط به.

وتتصل عيون الماء بالتراث الحضاري المعبر عن نشوء الحضارات، لأهمية الماء ذاته في وجود الحضارات البشرية، الأمر الذي دفع ميشيل كوت إلى استخدام مصطلح التراث المائي للحضارات، وقد اتصل بالتراث المائي مجموعة من الممارسات والمعتقدات والتعبيرات، التي تعتبر جزءاً من التراث الشعبي للإنسان على امتداد الحضارات وتسلسلها منذ نشأتها، وبذلك فإن لكل مجتمع بشري تراثا مائيا، ظلت كثير من ملامحه وآثاره باقية إلى يومنا هذا في شكل تراث حيوي أو أثري، تتصل مكوناته بالظروف المناخية والبيئية والاجتماعية والاقتصادية التي أحيطت به، في فترة زمانية معينة[2].

---

[1] خورشيد، فاروق: عالم الأدب الشعبي العجيب. القاهرة: دار الشروق، 1991، ص8.

[2] ينظر: ميشيل كوت: التراث الثقافي للماء في الشرق الأوسط والمغرب العربي. ترجمة: فراس عبد الهادي ومنار حماض، ط2، منظمة الأمم المتحدة: المجلس الدولي للآثار والمواقع، 2019، ص8.

عيون الماء في التراث القديم

أحاط الإنسان القديم الماء وأشكاله بهالة من التقديس، ومارس لهـا الشـعائر والطقـوس رغبـة فـي استمرارها، ولضمان الخصب مارس طقوسه الاحتفالية الشعائرية بالقرب منها، خاصة الينـابيع، التـي فسر وجودها بوجود أو مرور إله في الثقافات القديمة قبل الإسلام، او رجل صالح أو ولي في الثقافـات الشعبية ما بعد الإسلام، حتى غدت مكانا للتبرك والدعاء، والاستشفاء من الحسد والعين والسحر[1].

إن لجوء الإنسان القديم في طقوسه وشعائره إلى عيون الماء إنما يعود بالدرجة الأولى إلى أهمية المـاء في حياة الإنسان، كذلك إلى فكرة الربط بين الطبيعة والآلهة، بأن جعل لمظـاهر الطبيعيـة الصـامتة والمتحركة آلهة يعبدها، وقد ابتدع مجموعة من الطقوس رغبة منه في إرضاء هـذه الآلهـة وضـمان استمرار الخصب والحياة، كما أوجد جملة من التفسيرات لصيرورة الطبيعة المحيطة به، واعتقـد بهـا اعتقادا جازما، فانعكست على تفكيره وثقافته، وتوارثها الأجيال من جيل إلى آخر.

ومن هنا اعتقد الإنسان القديم بدورة الحياة، التي تقوم على الموت والبعث من الجديد، كما اعتقد بآلهـة الخصب والتجدد، ومن رموزها عشتار وبعل وتموز وأدونيس، ففي رحلتها إلى العـالم السـفلي يحـل القحط، وبعودتها يعود الخصب، فاكتشف أن الموت لم يكن أبدا مرحلة نهائية من شـأنها وضـع حـد لوجود الإنسان، وإنما الموت حالة عبور، ينتقل من خلالها الإنسان من مرحلة إلى أخرى، فالآلهة تموت في الفكر القديم، ولكنها تختلف عن البشر في أنها تعود، وما علـى الإنسـان إلا أن يمـارس طقوسـه وشعائره لضمان العودة من العالم السفلي عبر عيون الماء[2].

وملحمة جلجامش في الحضارة البابلية من أقدم النصوص التي وصلت إلينا، وتكشف لنا سطورها عـن ملامح الحضارة البابلية وما اتصل بها من موروثات، وقد بينت لنا الملحمة أن علاقـة الإنسـان الأول

---

[1] ينظر: فريزر، جيمس: الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين. ترجمة: نايف الخوص، ط2، الهيئة المصـرية العامـة للتـأليف والنشر، 1998، ص62.

[2] ينظر: عوض، ريتا: أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث. ط1، بيروت: المؤسسة العربيـة للدراسـات والنشـر، 1978، ص39.

بعيون الماء انطلقت من فكرة الخلود، فهذا جلجامش قد حرم من الخلود الذي أراده من رحلته إلى العالم السفلي، بعد موت صديقه أنكيدو، وقد سرقت منه الحية الخلود، عندما جلس يستريح بجوار عين الماء:

فخرجت من الماء واختطفت النبتة

وبنما كانت عائدة غيرت جلدها

وهنا جلس جلجامش وبكى[1].

وما فعله جلجامش في البحث عن الخلود فإن ذا القرنين فعل الأمر ذاته في الفكر الأسطوري، فقد أراد أن يملك الأرض وما عليها، ويخلد فيها فلا يموت، فأخذ يبحث عن الخلود إلى أن وصل (عين الحياة)، ليشرب منها ماء الخلود، لكنه منع من تحقيق غايته، فحرم من الخلود[2].

من الملاحظ على ملحمة جلجامش وأسطورة ذي القرنين التشابه الكبير بينهما، سواء من حيث البحث عن الخلود، أو من حيث اللجوء إلى عيون الماء، أو ممارسة الشعائر قربها للحصول على هذا الخلود، وهذا يعزو إلى الاعتقادات التي ابتدعها في مخيلته حول السر الذي يكمن في عيون الماء، فكان تفسيره الأول أن عين الماء أو البئر العميقة هي ممر يصل بين العالم السفلي والعالم العلوي، وأن في العالم السفلي أرواح آمن بقدرة تأثيرها في حياة العالم العلوي، فضلا عن اعتقاده بخلود الأرواح في العالم السفلي.

فبما أن الإنسان القديم آمن بفكرة تقسيم العالم إلى عالم علوي(عالم الأحياء)، وعالم سفلي (عالم الأموات)، فإنه آمن بوجود ممرات تربط بين العالمين، ولم يجد أنسب من عيون الماء، فهذا جلجامش تعرف على ما يحدث في العالم السفلي من خلال التواصل مع روح صديقه أنكيدو، بمساعدة الأب إيا:

فلما سمع الأب إيا هذا

---

[1] عزيز، كارم: أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم. دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1999، ص151.

[2] ينظر: خان، محمد عبد المعيد: الأساطير العربية قبل الإسلام. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937، ص34.

توجه بالقول إلى نرجال

نرجال أيها البطل المحارب، يا ابن بيليت إيلي

افتح الآن ثقبا في العالم السفلي

تتسلل منه روح أنكيديو من العالم الأسفل

فيشرح لأخيه مسالك العالم الأسفل[1].

وهو ما فعلته عناة مع بعل بعد موته في دورة الحياة والموت:

عندما ألقته على كتفيها صعدت به عناة

إلى أعالي جبل صهيون

وبكته ودفنته ووضعته

في حفرة آلهة الأرض[2].

وعشتار في الثقافة الشعبية البابلية والسومرية نزلت إلى العالم السفلي في دورة حياتها السنوية، عبر نهر في العالم السفلي يعبره الموتى في قوارب تنقلهم إلى مثواهم الأخير، في حياتهم الخالدة، وفي عالم الأموات الذي تحكمه الإلهة إيرشيجال وزوجها نركال[3].

ورغم اختلاف المسميات للآلهة وأنصاف الآلهة في الحضارات القديمة، إلا أن الأساطير التي حيكت حولها توحي إلى توحدها في الفكر الإنسان القديم، فالقاسم المشترك بينها هو ثنائية الحياة والموت، ووظيفة إله الخصب فيها هو البحث عن الحياة والتجدد، فكانت عيون الماء أضمن الطرق للحصول على الحياة والخصب.

---

[1] السواح، فراس: جلجامش: ملحمة الرافدين الخالدة. دمشق: دار علاء الدين، 1996، ص59.

[2] السواح، فراس: نفسه. ص59.

[3] ينظر: عبد الواحد، فاضل: عشتار ومأساة تموز. ط2، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة للنشر، 1986، ص107.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، يظهر الملك الآشوري في إحدى المنحوتات يحمل رشاشات ماء، تسحب الماء من نهري دجلة والفرات، ويرش به على رؤوس الناس، في طقس احتفالي[1].

وقد توارث الجاهلي الاعتقاد بوجود ممرات إلى العالم السفلي، فكان يلجأ إلى هذه الممرات، وهي على شكل بئر قديمة، بعيدة الغور، ليتأكدوا من خلالها إن كان الغائب حيا أو ميتا، وذلك بأن ينادوا باسمه في عين الماء ثلاث مرات، فإن سمعوا صوتا فهو من الأحياء، وإن لم يسمعوا صوتا فهو من الأموات[2].

وقد صور الشعر الجاهلي بشكل جلي هذا المعتقد، في قول الشاعر:

دعوْتُ أبا المغوارِ في الحفرِ دعوةً فما آضَ صوْتي بالّذي كُنت داعِيا

أظُن أبا المغوارِ في قعرِ مُظلمٍ تَجرُّ عليه الذّارياتُ السّواقيا[3]

ثم انتقل هذا الاعتقاد إلى الثقافة الشعبية الفلسطينية، فقد كان من يغيب له أحد، يلجأ إلى أقرب عين ماء، ويسأل الجان حارس العين عنه[4].

وتعود جذور هذا الاعتقاد بقدرة ينابيع الماء في الإخبار عن المفقود، وإعادته، وفي الأساطير الإغريقية، سكبت الأم ديمتري الدموع الغزيرة على حافة النبع، عندما طال غياب ابنتها بيرسيفوني، إيمانا منها بأن النبع قادر على إعادة ابنتها المفقودة بعد أن طال غيابها[5].

---

[1] ينظر: طه، نضال: المعتقدات الشعبية في فلسطين. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2009، ص100.

[2] ينظر: أبو سويلم، أنور: دراسات في الشعر الجاهلي. بيروت: دار الجيل، 1987، ص41.

[3] الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. شرح وتصحيح وضبط: محمد الأثري، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)، ج3، ص3.

[4] ينظر: أبو عمشة، عادل: حكايات حول عيون الماء في فلسطين...عين زواتا نموذجا، (د.مط)، (د.ن)، ص3.

[5] ينظر: غويربر: أساطير الإغريق واليونان. ترجمة: حسني فريز، عمان: دار الثقافة والفنون، 1976، ص121.

وهو ما فعله الإنسان في الفكر الأسطوري، فقد مارس الطقوس والشعائر لمساعدة تموز في العودة من العالم السفلي، ومن ثم عودة الحياة إلى وجه الأرض، ومن بين هذه الطقوس صناعة تمثال يجسد الإله تموز، ويحيطونه بالنباتات والفاكهة، ثم يلقونه في النهر[1].

وفي رأي الباحثة فإن السر في عيون الماء في الكشف عن مصير المفقود يكمن في أنها موصلة إلى عالم الأموات في الفكر القديم أولا، ولأن في عالم الأموات أرواحا لها قدرات خارقة في حياة الناس، قادرة على النفع والضرر، لذلك لجأ الإنسان إلى ممارسة الشعائر والطقوس اعتقادا منه أن مثل هذه الشعائر تضمن رضا الأرواح ومن ثم يتجنب سخطها وضررها، وتساعده في استمرار حياته.

وهذا المعتقد نابع من فكرة تناسخ الأرواح وحلولها في الثقافة الهندية القديمة، فقد اعتقد الهنود القدماء بأن روح الميت تنتقل من جسد الميت إلى جسد الحي، وهذا يعني انتقالها من العالم السفلي إلى العالم العلوي، ثم تنقل من جسد إلى آخر، وتحيا حياة بعد حياة، حتى تصل إلى أعلى درجات التقديس، فتستقر في العالم العلوي[2].

وهذا يفسر نزول جلجامش وعشتار وبعل إلى العالم السفلي في دورة حياتهم للحصول على الخلود، كما يفسر اختيار العيون لأنها الممر المائي الوحيد إلى العالم السفلي، ويفسر تقديس الآلة لحصولها على الخلود وقدرتها على جلب الخصب والحياة، ويفسر أيضا اختيار عيون الماء لتقديس هذه الآلهة.

فمن أوجه التقديس لعيون الماء في الحضارات القديمة أن مارس الإنسان القديم طقوس السحر، واستحضار الأرواح، وشفاء الأمراض، والتطهر من الخطيئة[3].

ومن هنا فإن القداسة التي أحيطت بها مجاري المياه وينابيعها إنما تعود إلى الربط بين مصادر الماء والآلهة، ففي الحضارة اليونانية، تحديدا في أسطورة أريثوسا، فإن النهر كان

---

[1] ينظر: عوض، ريتا: أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث. ص43.

[2] ينظر: أبو حسين، محمد رزق: المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2012، ص42.

[3] ينظر: الوجود، ثناء: رمز الماء في الأدب الجاهلي. ط1، مصر: مكتبة الشباب، (د.ت)، ص16.

إلها أسطوريا قبل أن يصبح جدولا، وفي أخبار الأسطورة فإن أريثوسا قد تحولت إلى نبع، وكان هـذا النبع يتكلم[1].

والإله (سوين) إله القمر في الفكر السومري، وهو نفسه (سين) في الحضارة الأكادية، وهو مسؤول عن الخصب في الحضارتين، وإليه ينسب تفجير ينابع الماء[2].

وقدس الإنسان القديم في الحضارة المصرية ماء النيل، وأقام له الطقوس والشعائر، حتى إنه قدس بعض الحيوانات فيه، على اعتبار أنها رمز من رموز الإله الذي يسكن عين الماء، كتقديس السمكة، وسـموا بعض الحيوانات المائية كالتمساح بأسماء مقدسة[3].

وبعل في الثقافة القديمة المتوارثة هو روح الينابيع والمياه الجارية، ومن اسمه أخذ مصـطلح الزراعـة البعلية، كزراعة النخيل في الجزيرة العربية، الذي لم يكن يروى بماء المطر، وإنما من مـاء العيـون، فغياب بعل يعني جفاف العيون، وبعودته تجري المياه في العيون[4].

وهذا تكريس لفكرة الربط بين مصادر المياه والآلهة، وتقسيم الآلهة بحسب مصادر المياه إلى قسـمين، آلهة المياه العذبة والينابيع، وهي عشتار ورموزها في الحضارات المختلفة، وآلهة المياه المالحة وهـي تيامت ورموزها في الحضارات المختلفة، على النحو الآتي:

الإله إيد: إله المياه العذبة ومصادرها.

الإلهة نينا: آلهة الينابيع والأنهار.

الإله نندارا: إله البحر.

---

[1] ينظر: غويربر: أساطير الإغريق واليونان. ص124.

[2] ينظر: لابات، رينيه وآخرون: سلسلة الأساطير السورية. ترجمة: مفيد عرنوق، ط2، دمشق: دار علاء الـدين للنشـر والتوزيـع، 2006، ص329.

[3] ينظر: الوجود، ثناء: رمز الماء في الأدب الجاهلي. ص14

[4] ينظر: حتى، فيليب: تاريخ العرب. ط3، بيروت: دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، 1958، ج1، ص135.

الإله أنبللو: إله الأنهار والمياه العذبة، وهو صاحب النهرين دجلة والفرات في العراق[1].

والنيل في الحضارة الفرعونية القديمة هو أبو الآلهة، وأطلق عليه صفات الإله أوزيريس، إله الخصب في الحضارة المصرية القديمة، كما عرفت إيزيس في الحضارات الغابرة بروح الماء[2].

وتعود جذور الربط بين الآلهة والماء من الاعتقاد البدائي بأن الماء أصل الآلهة وأصل جميع المخلوقات، فبحسب الأساطير الفرعونية فإن الإله (آتوم) خرج من عماء الماء (نون)، ثم أنجب الإله (شو) إله الهواء، والإلهة (تفف نوت) إلهة الرطوبة[3].

وفي المعتقد الجاهلي فإن هناك إلها يسيطر على منابع الماء على سطح الأرض، من خلال سيطرته على المنبع الأصل الذي يغذي باقي المنابع، وله آلهة مكلفون بحراسة باقي العيون في أرجاء الأرض، لذلك قدس العربي منابع الماء، ومارس بجوارها طقوسه وشعائره، رغبة في الحصول على الخصب والبركة[4].

ومن أوجه حراسة الآلهة لعيون الماء في الفكر القديم أن هذا الإله قد يتجسد في رمز حيواني، كأن يكون أفعى، فقد أطلق في الحضارة السومرية على حيات عيون الماء (نمو)، أي إله الماء[5].

والوعل في الفكر السومري رمز للإله (إنكي)، إله المياه العذبة بجميع أشكالها، الأنهار والينابيع والبحيرات، فأينما يحل هذا الحيوان يحل الخصب، وتتجدد الطبيعة بفعل المياه العذبة التي يفجرها قدومه[6].

---

(1) ينظر: عرفة، إبراهيم ومعتوق، جمال: الماء بين المقدس والطقوس الممارسة...دراسة مونوغرافية في منطقة بئر الذهب تبسة. مجلة أنثروبولوجياو العدد(5)، 2019، ص13.

(2) ينظر: الوجود، ثناء: رمز الماء في الأدب الجاهلي. ص14

(3) ينظر: جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، الكويت: عالم المعرفة، 1993، ص45.

(4) ينظر: أحمد، أسماء: أساطير حول الماء وأساطيله. حولية كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، المجلد(11)، العدد(24)، 2020، ص11140.

(5) ينظر: أحمد، أسماء: أساطير حول الماء وأساطيله. ص11150.

(6) ينظر: بشور، وديع: سومر وأكاد. دمشق، (د.مط)، 1981، ص186.

والوعل هو الصورة الحيوانية التي تحول إليها الإله (أكتيون) الذي اقتحم على (أرتميس) وهي تستحم عند منبع النهر، فمسخته الآلهة وعلا[1].

وذكر القزويني أن الجاهلي ورث الاعتقاد بوجود حيات عظام في عيون الماء، قادرة على ابتلاع حيوان كبير، أو كسر شجرة[2].

فاعتقاد الجاهلي بوجود الآلهة في عيون الماء، وسيطرتهم عليها، دفعه إلى جعل هذه العيون مكانا للحج إليها، وحاكوا حولها العديد من الغرائب والعجائب، ومن ذلك ما أورده القزويني أن الجاهلي كان يلجأ لعين دحياني من أجل أن يطلب من الإله المسيطر عليها تحريك الهواء، لفصل الحب عن القش، فيأخذ خرقة الحيض، ويوقع بها في العين، فيتحرك الهواء[3].

وكما أن فكرة الربط بين الموت والماء حاضرة في الفكر القديم، فإن الفكرة ذاتها توارثها الإنسان الجاهلي، عندما ربط بين ورود ينابيع الماء والموت، فقد صور الشعر الجاهلي هذا الترابط، في قول حاتم الطائي:

يا مالِ إحدى صُروفِ الدَهرِ قَد طَرَقَت يا مالِ ما أَنتُمُ عَنها بِنُزّاحِ

يا مالِ جاءَت حِياضَ المَوتِ وارِدَةً مِن بَينِ غَمرٍ فَخُضناهُ وَضَحضاحِ[4]

وكان يقدم لهذه الآلهة القرابين والنذور لضمان استمرار جريان الماء في الينابيع، على نحو ما نجده في الحضارة الفرعونية، عندما كان الفراعنة يقدمون فتاة لإله النيل قربانا، تسمى عروس النيل، لضمان وفرة مياه النيل، وتدفقها من منبعها الرئيس[5].

---

[1] ينظر: الديك، إحسان: الوعل صدى تموز في الشعر الجاهلي. مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد(2)، 2003، ص44.

[2] ينظر: القزويني، زكريا: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. ط1، بيروت: مؤسسة الأعلمي، 2000، ص295.

[3] ينظر: القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. ص21

[4] الطائي، حاتم: الديوان. دراسة وتحقيق: عادل سليمان جمال، ط2، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1990، ص244. الضحضاح: القليل من الماء.

[5] ينظر: عرفة، إبراهيم ومعتوق، جمال: الماء بين المقدس والطقوس الممارسة...دراسة مونوغرافية في منطقة بئر الذهب تبسة. ص16.

ولا شك في أن الاعتقاد بقدرة الولي على جلب الماء هو امتداد لاعتقاد الثقافة الشعبية القديمة بآلهة خصب، القادرة على جلب الخصب، وإجراء الماء في العيون، لذلك فإن موتها وغيابها يعني جفاف العيون، فيلجأ الناس إلى الطقوس الأسطورية لضمان عودة إله الخصب من العالم السفلي، عبر الممرات التي تربط بين العالمين: عالم الأحياء وعالم الأموات، وبعودته تعود المياه إلى مجاريها، لذلك قيل في رثاء تموز في الحضارة البابلية:

طرفاء في الجنينة لم يسقها الماء

ولم تزهر بالنور قمتها في الحقول

صفصافة لم تسعد بالمياه الجارية[1].

وقسم المصري القديم الأرض إلى قسمين، أرض حمراء قاحلة، وأرض سوداء خصبة، وحصر الخصوبة في أرض مصر، لوجود النيل فيها، الذي يفيض من العالم السفلي، فمصدره من الماء الحي الموجود في باطن الأرض، وينبع من فتحتين موقعهما بين صخور الشلال الأول[2].

ومجمل القول إن اعتقاد الإنسان القديم حول عيون الماء يتمحور حول فكرتين متتابعتين، الأولى سيطرة الآلهة على عيون الماء، والثانية الحياة والخلود، فالآلهة التي تسيطر على عيون الماء قادرة على تحقيق الخصب والحياة للإنسان في حال رضاها، وايقاع الموت والقحط في حال غضبها.

وفكرتا الخلود والخصب اللتان ارتبطتا بعيون الماء في اعتقاد الإنسان القديم، تفسر لنا اختيار عيون الماء لبناء معظم المقامات بجوارها، كما تفسر وجود شجرة أحيطت بالتقديس والمعتقدات في رحابه، اعتقاد بوجود حياة بعد الموت، وفي هذه الحياة يحتاج الإنسان إلى أهم مقوماتها، الماء والطعام، فقد "

---

[1] فريزر، جيمس: أدونيس أو تموز. ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، ط3، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982، ص21.

[2] ينظر: الوجود، ثناء: رمز الماء في الأدب الجاهلي. ص13

اعتقد المصري القديم أن الميت بعد بعثه يسكن أعالي الأشجار، وهو بحاجه إلى ما يعينه على الخلــود، كحاجته إلى الماء والطعام"[1].

ومن ناحية أخرى تتجلى علاقة الولي صاحب المقام بعيون الماء في أن الطقوس الشعبية للاستسقاء، في الثقافة الشعبية الفلسطينية كانت غالبا ما تنتهي عند المقام، ويغني المستسقون الأغنية الشعبية:

اســــــقونا يــــــا دار الشــــــيخ والميــــــة علــــــيكم زيــــــح

فيتولى رجل تقي برش الماء على المستسقين، لاعتقادهم أن الولي الصالح في العالم السفلي قادر علــى مد الماء إليهم[2].

---

[1] رقطان، زهير: أوغاريت....ذاكرة حقل. رام الله: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، 2003، ص33.

[2] ينظر: البرغوثي، عبد الطيف: الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن. جامعة بير زيت: مكتبة الوثــائق والأبحــاث، 1979، ص47.

الفصل الثاني

عيون الماء في المعتقدات الشعبية الفلسطينية

تمهيد

تحتل المعتقدات الشعبية مساحة واسعة من الفولكلور الشعبي، وتتسم في الثقافة الشعبية بطابع القداسة، حتى يصعب التمييز بينها وبين الدين لدى الكثير من العامة، بل يعتقد كثير منهم أنها جزء من الدين، يجب الالتزام بها، وعدم مخالفتها أو التمرد عليها، ولقوة تأثير المعتقدات الشعبية نجدها ماثلة في معظم صور الموروث الشعبي، وفي كل جوانب الحياة، وهي تقدم أوضح الصور لثقافة الأمة وطريقة تفكيرها[1].

وتمثل المعتقدات الشعبية جملة من الأفكار حول الطبيعة المحيطة بالإنسان، ومتعلقة بدورة حياة الإنسان في مراحلها المختلفة، وقد ترسّخت في نفوس معتقديها، إلى درجة الإيمان والتصديق بها، وبفاعليتها في حياة الإنسان، وللخيال الجمعي المتوارث دور كبير في تعليلها، ونسج القصص والخرافات والعجائب حولها[2].

ومصطلح المعتقدات يطلق على الخرافات القديمة، ثم أصبح يطلق على كل ما علق في أذهان الناس من أفكار تجاه ظاهرة ما، أو حدث معين، أو مكان مخصص، ويتسم بالشيوع[3].

وتتسم المعتقدات الشعبية بأنها الجامع الموحد لأفراد الأمة، وهي الكاشف لحقائق وجودهم، والمعبر عن امتدادهم في الماضي، وهي تجمع بين ثقافات مختلفة، وقد تكون قد ولدت في رحم الأساطير، والطقوس المتصلة بها[4].

---

[1] ينظر: أبو سلطان، أسامة وكلاب، محمد: استدعاء الفلكلور في الشعر الفلسطيني المعاصر... المعتقدات الشعبية أنموذجا. مجلة جامعة الأقصى، المجلد(21)، العدد(1)، ص47.

[2] ينظر: الجوهري، محمد: علم الفولكلور: دراسة في المعتقدات الشعبية. ط1، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ج2، ص21.

[3] ينظر: صالح، أحمد رشدي. الأدب الشعبي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1971، ص123.

[4] ينظر: أبو سلطان، أسامة وكلاب، محمد: استدعاء الفلكلور في الشعر الفلسطيني المعاصر... المعتقدات الشعبية أنموذجا. ص50.

ونظرا لأهمية الماء في حياة الفلسطيني فقد أحاطه بمجموعة من المعتقدات، ومارس من أجله جملة من الممارسات والطقوس الشعبية، وقد تلاقت حاجة الفلسطيني للماء مع حاجة الإنسان القديم له، فورث عنه معتقداته حول الماء ومصادره، والباحث في المعتقدات التي اعتقد بها الفلسطيني حول الماء بعامة، وعيون الماء بشكل خاص يجد أن عيون الماء ارتبطت في حضورها بالأرواح والجان والإنسان والحيوان، وهو ما ستتناوله الباحثة تحت العناوين الآتية:

عيون الماء والأرواح

اعتقد الفلسطيني أن عيون الماء مسكونة بأرواح الأولياء الصالحين، فآمنوا أن لتلك العيون قدرة شفائية لبعض الأمراض، كحصر البول، وفي المقابل تحرس العين روح شريرة، تعاقب من يعبث بها، وقد تظهر هذه الأرواح في شكل حيوان، أو عبد أو غولة، أو مارد[1].

وعليه فإن هناك نوعين من الأرواح يحرسان عين الماء، الأولى أرواح آلهة الخير والخصب والأولياء والصالحين، ذات القدرة الشفائية من الأمراض المختلفة، والثانية الأرواح الشريرة التي تظهر على شكل حيوانات وعبيد أو غولة أو مارد.

واعتقاد الفلسطيني بسيطرة الروح على عين الماء يلتقي مع اعتقاد الإنسان البدائي بسيطرة الروح الصاعدة من العالم السفلي على عيون الماء، واعتقاد الفلسطيني بوجود روح تحرس العين يتلاقى مع اعتقاد الإنسان القديم بحراسة الآلهة لعيون الماء، وحلولها في جسد حيوان كالحيات، كما أن اعتقاد الفلسطيني بالقدرات الخارقة لعيون الماء يتلاقى مع الاعتقاد الشعبي في الثقافات القديمة في قدرة آلهة المياه العذبة والينابيع على جلب الخصب.

[1] ينظر: كنعان، توفيق: الكتابات الفلكلورية. بيرزيت: دار علوش للطباعة والنشر، 1998، ص115، وص16.

وقد وحد الفلسطيني في المعتقد الشعبي بين الروح وعين الماء والبيئة المحيطة بها، من خلال المعتقدات المتوارثة حول كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة، ومن هنا فإن الفلسطيني يفسر الينابيع التي يكتشفها في البراري المهجورة بقدرة الروح على منح الخصب والحياة.

وفي هذا السياق يقول كنعان في حديثه عن سكن الجن والعفاريت في عيون الماء:" شكلت الينابيع التي تظهر فجأة في الأماكن الجافة سرا غامضًا يؤرق الفلسطيني منذ القدم، فبدأ يتساءل عن الأسباب، وعندما نظر إلى البيئة المحيطة بهذه الينابيع حيث المكان المهجور، والأشجار الكثيفة، والظلام الدامس، أيقن أن هناك أرواحا خيرة، وأخرى شريرة، تتحكم في مياه الينابيع، فعمل على تقديسها والتقرب إليها بالنذور والقرابين"[1].

ومن بين المعتقدات الشعبية الفلسطينية حول عيون الماء المسكونة بالأرواح أن الأرواح الشريرة تخرج من العين ليلا في صورة الغول أو المارد، باحثة عن ضحية لها من البشر لتأكله[2].

وثمة ربط بين الروح الحارسة والمسيطرة على العين ودلالة اللون، فقد ذكر الباش والسهيلي أن "عين الماء في المعتقد الشعبي تسكنها روحان، أحدهما روح سوداء شريرة، مسؤولة عن المياه في العين وجفافها، وأخرى روح بيضاء مسؤولة عن وفرة المياه في العين"[3].

وثمة عيون ماء حارة في أرض فلسطين، ولجهل الفلسطيني في تفسير ارتفاع حرارة الماء في هذه العيون، فإنه لجأ إلى المعتقد الشعبي المتوارث، وورث منه تلك الحكايات والخرافات التي تفسر سخونة الماء في تلك العيون، فاعتقد بوجود أرواح مسخرة لتسخين الماء الصاعد من العالم السفلي إلى العالم العلوي، وتعود جذور هذا المعتقد إلى عهد الملك سليمان، الذي أراد أن يمنح أهل فلسطين حماما طبيعيا

---

[1] كنعان، توفيق: الينابيع المسكونة بالجن وعفاريت الماء في فلسطين. مجلة التراث والمجتمع، جمعية إنعاش الأسرة، المجلد(3)، العدد(2)، 1976، ص214.

[2] ينظر: حسين، عماد: عليك الأمان...العيون المسكونة بالأرواح. موقع مترا، 3ايوليو 2020: https://metras.co/

[3] الباش، حسن والسهيلي، محمد: المعتقدات الشعبية في التراث الشعبي. دمشق: دار الجليل، (د.ت)، ص218.

ساخنا تكريما لهم، ومن يومها ظلت الأرواح مسخرة لتسخين الماء دون توقف، خوفا من عقاب الملك سليمان لها، خاصة وأنها لم تعلم بموته[1].

ومن أجل اتقاء شر هذه الأرواح، وضمان رضاها، كذلك ضمان استمرار تدفق الماء في الينابيع، فقد مارس الإنسان الشعبي الطقوس، ونفذ ما أملته عليه الثقافة الشعبية المتوارثة من معتقدات، فأنشأ معبودات ومقدّسات على شكل أضرحة وآلهة تحرس الينابيع والمجاري المائية، واعتبرها هي المسؤولة عن الجفاف وسيادة الخير، ولديها قوة سحرية على تحقيق الإنبات والاستشفاء وزواج العوانس، وطرد الأرواح الشريرة التي قد يصاب بها الإنسان[2].

ومن أوجه التقديس التي مورست بجوار العيون، أو بجوار الأضرحة والمقامات التي أقيمت بجانب تلك العيون، عادة العقر وتقديم القرابين، ويصاحبها تعبيرات خاصة تشكل عنصرا مهما من الممارسات التي تضمن قبول الروح للقربان، ومما يقال في هذه المناسبة:" هدية نور، بصحون بنور، لحضرة الرسول، وروح أبينا آدم، وأمنا حواء، والخليل إبراهيم، وأرواح الحرقى والغرقى والمساكين"[3].

وهذا يذكرنا بما فعلته عناة في طقوسها الأسطورية عند موت الإله بعل إله الخصب والمزروعات، فقد قدمت القرابين من أجل ضمان عودته بعد موته:

دفنته ووضعته في حفرة

آلهة الأرض، ثم أنها نحرت سبعين رئما ذبيحة

ثم نحرت سبعين ثورا"[4].

---

[1] ينظر: كنعان، توفيق: الينابيع المسكونة بالجن وعفاريت الماء في فلسطين. ص216.

[2] ينظر: جبران، حسن: عنصر الماء بين المعتقدات الدينية والممارسات الاجتماعية في المجتمعات المغاربية. مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 18\ أكتوبر: https://www.mominoun.com/articles.

[3] الخليلي، علي: الغول. نابلس: مطابع الاقتصاد، 1982، ص89.

[4] فريحة، أنيس: ملاحم وأساطير من أوغاريت(رأس شمرا). بيروت: دار النهار للنشر والتوزيع، 1980، ص171.

فثمة تلاق يظهر في النص بين ماء العيون والإله بعل، فكلاهما من رموز الحياة والخصب، وغيابهما يعني الموت والقحط، لذلك قدم المصريون القدامى لنهر النيل ما عرف بعروس النيل لضمان استمرار جريانه، فخوف الإنسان من المجاعات دفعته إلى اللجوء إلى القرابين لتهدئة غضب الأرواح والآلهة[1].

عيون الماء والجن

كثيرا لا تفرق الثقافة الشعبية الفلسطينية بين الروح والجن في الاعتقاد الشعبي، وربما يكون استبدال الجن بالروح في معتقداته حول الماء لغموض الروح أولا، ونفي تدخلها وتأثيرها في حياة الإنسان بمجيء الإسلام ثانيا، فوجد الإنسان البسيط في الجن بديلا للروح.

تبدأ علاقة الجن بالماء في الخرافات التي حيكت حول هذه العلاقة من الاعتقاد بمسكن الجن، فقد ذكر كنعان بعض الخرافات التي تشير إلى مسكن الجن، وهو باطن الأرض، ويعود ذلك بحسب الخرافة بأن آدم عليه السلام طلب من الله عز وجل أن يسكن بعض أولاد حواء في باطن الأرض، بعد أن كانت حواء تلجأ إلى رميهم، لكثرة عددهم، ففي الرواية تلد حواء أربعين طفلا في كل مرة، ولأنها لا تستطيع إرضاع الجميع كانت ترمي عشرين منهم[2].

وقد أورد عادل أبو عمشه في سياق حديثه عن عين الماء في قرية زواتا أن عين الماء يحرسها الجن، وذكر أن هذا الجان كان يتحدث مع الناس بحسب بعض الحكايات، على غرار ما ورد في حكاية أم محمد العريان، الذي دخل إلى العين ولم يرجع، فعندما حضرت أمه للبحث عنه أخبرها الجان حارس العين أن ابنها يرقص في الباذان[3].

---

[1] ينظر: الخادم، سعد: الفن الشعبي والمعتقدات السحرية. مصر: مكتبة النهضة المصرية، (د.ت)، ص37.

[2] ينظر: كنعان، توفيق: الاعتقاد بالعفاريت. مجلة الفنون الشعبية، دائرة الفنون والثقافة، عمان، المجلد(3)، العدد(4)، 1974، ص16.

[3] ينظر: أبو عمشة، عادل: حكايات حول عيون الماء في فلسطين...عين زواتا نموذجا. ص3.

وهذا يذكرنا باللجوء إلى الآبار القديمة وعيون الماء في الحضارات القديمة والحياة الجاهلية للبحث عن مفقود، كما حدث مع جلجامش في البحث عن صديقه أنكيدو بعد موته، وكما فعلت عناة مع بعل، وكما فعل الشاعر الجاهلي في البحث عن أبي المغوار، كما مر معنا في التمهيد.

كما أن استبدال الجن في المعتقدات الشعبية الفلسطينية بالآلهة في الفكر القديم، في سيطرتها على عيون الماء، يعود إلى تأثير البيئة والدين الإسلامي، حيث لا وجود لآلهة غير الله، فلم يجد الفلسطيني سوى الجن المحاط بالأسرار، والمغلف بالقوى الخارقة، لينسب إليه بعض معتقداته، لاسيما وأنه لا أساس لها في الدين.

وليس أنسب من عيون الماء في المعتقد الشعبي لتكون ممرا للجن من باطن الأرض (العالم السفلي) إلى سطح الأرض (العالم العلوي)، لذلك اعتقد الفلسطيني الشعبي أن عيون الماء هي المكان الذي يخرج منه الجن، ويتوزعون في أنحاء المعمورة[1].

علاقة الإنسان بعيون الماء

ومن ناحية أخرى ربط الفلسطيني في معتقده الشعبي بين عيون الماء والإنسان، ووحد بينهما على أساس الجنس، فقد ذكر عادل أبو عمشة في سياق حديثه عن عين زواتا أن العيون في القرية " تقسم بحسب الثقافة الشعبية لأهل القرية إلى قسمين، الأول عين ذكر، والثاني عين أنثى، وعين الذكر دائمة لا تنقطع، وعين الأنثى تجري فقط في فصل الشتاء"[2].

هذا التوحد بين الإنسان والطبيعة موروث قديم، فقد وحد الإنسان القديم بين الآلهة (عشتار، تموز، بعل، أدونيس) ووفرة الماء والخصب، فبمثولهم يحل الخصب، ويجري الماء في العيون، وبرحيلهم يحل القحط، وتجف المياه.

---

[1] ينظر: كنعان، توفيق: الينابيع المسكونة بالجن وعفاريت الماء في فلسطين. ص213.

[2] أبو عمشة، عادل: حكايات حول عيون الماء في فلسطين...عين زواتا نموذجا. ص5.

وفي المعتقد الشعبي الفلسطيني حول عيون الماء، نجد فكرة التوحد بين عين الماء والإنسان في عين الفوار قرب أريحا، إذ إن المعروف عن هذه العين أن ماءها متقطع، فتارة تكون خصبة وفيرا ماؤها، وتارة تنضب وينقطع فيها الماء، ويعزو الفلسطيني الشعبي هذا التبادل بين الجريان والتوقف في ماء العين إلى الصراع بين عبدين، يسيطران على العين، عبد أبيض وآخر أسود، فإذ ما تغلب العبد الأبيض عادت المياه إلى مجاريها، وإذا تغلب العبد الأسود جف الماء وانقطع[1].

وفي هذا المعتقد تلاقت في ذهن الفلسطيني مجموعة من الأفكار المتوارثة، تتمثل في فكرة التوحد بين الإنسان والطبيعة، وفكرة الأرواح الخيرة التي تجلب الخير ويقابلها الأرواح الشريرة التي توقع الضرر، وفكرة الألوان ودلالتها، فاللون الأبيض يدل على الحياة والاستقرار والخصب، واللون الأسود يرمز إلى الجدب والقحط والحزن والموت.

فقد جرت العادة بين النساء في فلسطين أن يلبسن اللباس الأسود حدادا على الميت، حتى غدا الثوب الأسود رمزا من رموز الموت والحداد والحزن[2]، وجدب عين الماء يعني الموت، لذلك ارتبط في الذهن الشعبي بغلبة العبد الأسود للعبد الأبيض.

وفكرة الربط بين اللون الأسود ودلالة القحط والجدب فكرة قديمة متوارثة في الذهن الجمعي الشعبي من الحضارات القديمة، فقد صور إله الموت في ديجور وهو يهبط على الناس لقبض أرواحهم بجناحين كبيرين أسودين[3]، ولعشتار في الحضارة البابلية وجهان، وجه أسود يدل على الموت والحرب والقحط، ووجه أبيض يدل على الحياة والسلم والخصب[4].

---

[1] ينظر: عياش، خالد: الجن في الأدب الشعبي الفلسطيني. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2018، ص41

[2] ينظر: عرنيطة، يسرى جوهرية: الفنون الشعبية في فلسطين. ط3، (د.ط)، 1998، ص119.

[3] ينظر: البيديل، م. ف: سحر الأساطير. ترجمة حسان ميخائيل اسحاق، دمشق: دار علاء الدين، 2005، ص280.

[4] ينظر: مسعود، ميخائيل: الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام. بيروت: دار العلم للملايين، ص112.

ومن ناحية أخرى ربط الفلسطيني في المعتقد الشعبي بين لون الماء ولون حيض المرأة، فاعتقد أن احمرار ماء العيون في أريحا ليلا يعود إلى حيض الروح الأنثى المسيطرة على العين في النهار[1].

ولعل القاسم المشترك، كما ترى الباحثة، بين الحيض والماء هو الخصب، فكلاهما يدل على الخصب والتجدد، وقد ربط الفكر الأسطوري بين المرأة والقمر في دلالة الخصب، فكلاهما يمر بدورته الشهرية، ليعلن في كل دورة بداية حياة جديدة، وتكون هذه الحياة عند المرأة بعد انتهاء الحيض، وعند القمر بعد موته وانبعاثه من جديد، ففي بلاد الرافدين، على سبيل المثال لا الحصر، كان الناس يعتقدون أن تمام البدر يكون يوم تحيض عشتار، وسمي هذا اليوم بيوم (السباتو)، يوم الراحة، وليس أدل على ذلك من أن كلمة (menstruation) في اللغة الإنجليزية تعني الطمث، وتعني في أصولها التغير القمري[2].

وفي فلسطين عيون ماء يعتقد أصحابها بأنها تقع تحت سيطرة وحراسة فتيات جميلات بشعورٍ طويلة، يجلسنَ بجانب العَينِ ينتظرن رجلاً يمشي وحده قريباً منهنّ، فيجذبنه ويعِدنَهُ بالغناء والرّاحة، وحين يصطدنَ رجلاً، فإنّه يَختفي لسنوات، كما تُقول القصّة الّتي حصلت يوماً في عين الحمّام في بيرزيت الّتي تسكُنُها عَروسة[3].

وانطلاقا من فكرة سيطرة الروح على عين الماء في المعتقد الشعبي الفلسطيني، وترسيخا لها، وانسجاما مع ما توارثه من الحضارات القديمة حول الاعتقاد بالأرواح والآلهة وقدرتها على النفع والضر، فإن الفلسطيني أحاط قبور الأولياء والصالحين(المقامات) بهالة من التقديس، لا سيما تلك المقامات المقامة بجوار عين ماء، ذلك أن " النظم الروحية المرتبطة بالمقامات هي ارتداد لوضع سابق، أو إعادة انتاج له، بما يشمل الوعي التاريخي"[4].

---

[1] ينظر: كنعان، توفيق: الينابيع المسكونة بالجن وعفاريت الماء في فلسطين. ص222.

[2] ينظر: السواح، فراس: لغز عشتار. ط6، دمشق: دار علاء الدين، 1996، ص75.

[3] ينظر: حسين، عماد: عليك الأمان...العيون المسكونة بالأرواح. موقع مترا، 3ايوليو 2020: https://metras.co/

[4] الناشف، خالد: في الذاكرة. مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد(13)، العدد(50)، 2002، ص10

وجدير بالذكر أن من بين أنواع المقامات والمزارات التي ذكرها كنعان في فلسطين بعض عيون الماء، رغم خلوها من قبر ولي أو مقام رجل صالح[1].

عين الماء والحيوان

اعتقد الإنسان القديم بوجود أصناف من الحيوانات تسكن عيون الماء، تحرسها، وتضمن استمرار جريان الماء فيها، كالحيات، والجمال، والحيوانات المفترسة، كما مر معنا في التمهيد، ولعل هذا الاعتقاد نابع من فكرة الاعتقاد بتناسخ الأرواح وحلولها، فتحل روح الإله في حيوان يحرس العين، ويسكنها، وهنا يتلاقى معتقدان، الأول الاعتقاد بسيطرة الروح على العين، والثاني الاعتقاد بقدرة الروح على التجسد في جسم الإنسان أو الحيوان.

وفكرة الحلول والتناسخ جلية في المعتقد الشعبي القديم، وفي المعتقد الشعبي الفلسطيني، فروح الميت في الثقافة الشعبية الفلسطينية تحل في طائر البوم، ومن خلاله تزور روح الميت أهلها وبيتها، وتراقب مدى حزن من كان الميت يعيش في كنفهم على فراق الميت لهم، لذلك يتشاءم الناس في الثقافة الشعبية الفلسطينية من البوم لارتباطه بالموت[2].

وبالنسبة لعيون الماء في المعتقد الشعبي الفلسطيني وفكرة حلول الأرواح فيها، نجد عين أم الدرج في سلوان خير مثال على هذا المعتقد، إذ يعتقد من يسكن بجوار هذه العين أنها تقع تحت سيطرة عين شريرة تظهر على شكل جمل، فإذا ما عطش الجمل شرب ماء العين، فتجف، وينقطع ماؤها فترة من الزمن[3].

ويعتقد من يسكنون بجوار عين منجد وعين بيتين في رام الله أن العينين مسكونتان بعروسة، تتحول إلى ماعز إذا مر أحد بجوارها، فيلحقها، وتبدأ الماعز بعدها بالقفز من صخرة إلى أخرى، حتّى تصل

---

[1] ينظر: كنعان، توفيق: الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين. رام الله: وزارة الثقافة، 1998، ص66.

[2] ينظر: عودة، عمر: البكائيات في الأدب الشعبي الفلسطيني. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2008، ص193.

[3] ينظر: كنعان، توفيق: الينابيع المسكونة بالجن وعفاريت الماء في فلسطين. ص216.

بالرجل إلى بقعة خالية، وعندها ترجع عروسة، وتَغوي الرجل، كما يعتقد البعض أن الروح التي تسكن عيون الماء تخرج ليلا على شكل الجمال والخرفان، باحثة عن العشب[1].

عيون الماء والخصب

كما أن الإنسان القديم لجأ إلى روح الإله المسيطرة على عين الماء، كما مر معنا في التمهيد من هذا البحث، لطلب الحياة والخصب والتجدد، ودفع الضرر والمرض والسحر، فإن المقامات بحسب المعتقد الشعبي الفلسطيني هي " التعبير المادي عن المعتقدات الشعبية، وأماكن طقوسها، وما يمنح القرى والبركة والحماية"[2].

فلا تكاد تخلو قرية من القرى الفلسطينية من مقام أو قبر لولي صالح، وكان أهل القرية، إلى عهد قريب، يتقربون إليه بالنذور، ويمارسون في رحابه الشعائر والممارسات الشعبية، التي من شأنها إرضاء روح الولي القادرة على جلب النفع والبركة ورد الأذى في المعتقد الشعبي[3].

لذلك كانت شعائر الاستسقاء تنتهي غالبا عند المقام، ليطلب المستسقون من صاحب المقام المطر، فيبادر الشيخ في القرية برش الماء على الناس تفاؤلا باستجابة الولي، وهذا يعود بنا إلى الطقس الديني في الحضارة الآشورية، وقد أظهرت منحوتة الملك الآشوري وهو يصب الماء على رؤوس الناس[4].

وغالبا ما تكون هذه المقامات بجانب عين ماء، أو على سفح جبل، ويعلل حنيطي كون المقامات على سفح جبل لتكون مشرفة على الواد المقابل للجبل، يقول:" وحتى تلك المزارات التي تبنى على منحدر جبل، أو بالقرب من مجرى الوادي، فإنها تبنى بحيث تسيطر وتشرف على المنطقة المحيطة بها"[5]،

---

[1] ينظر: حسين، عماد: عليك الأمان...العيون المسكونة بالأرواح. موقع مترا، 3يوليو 2020: https://metras.co/

[2] الناشف، خالد: في الذاكرة. ص11

[3] ينظر: كنعان، توفيق: الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين. ص25.

[4] ينظر: طه، نضال: المعتقدات الشعبية في فلسطين. ص100.

[5] حنيطي، أحمد: مقام سيدي شيبان. القدس: مؤسسة الرؤيا الفلسطينية، 20016، ص4

والقليل من هذه المقامات والمزارات في فلسطين شيدت في الوديان، وغالبا ما تكون عند ملتقى وادیین[1].

فمقام الشيخ شيبان في الشمال الشرقي من مدينة البيرة، ارتبط اسمه بعيون الماء والمواقع الأثرية، في منطقة البيرة، كما بين الباحث شوامرة في الخرائط التي نشرها للمواقع الأثرية وعيون الماء في محافظة البيرة، حيث ذكر من بين هذه المواقع عيون الشيخ شيبان، ومقام الشيخ شيبان، وجبل الشيخ شيبان[2].

وذُكر بعض أسماء القديسين والأولياء في فلسطين، دفنوا بجوار عيون الماء، بحسب الاعتقاد الشعبي، منهم على سبيل المثال لا الحصر: " دفن الولي أبو العينين في جوار عين قينيا(شمال رام الله)، ودفنت العذار في جوار عين عونة في بيت جالا"[3].

أما في حالة وجود المقام بعيدا عن عيون الماء، أو مجاري الأودية في فلسطين، فإن البئر، وهي من مسميات العين في الثقافات القديمة كما مر معنا في التمهيد، من أهم أجزاء المقام، على نحو ما نجده في مقام القطراوني في قرية عطارة، والذي أقيم على معبد بيزنطي، حيث يحتوي على بقايا كنيسة، وأجزاء من السور المحيط بها وبئر[4].

ويلاحظ على أجزاء المقام ومحتوياته حضور تمثيل الحياة والخصب، من خلال الربط بين الرموز الثلاثة: الولي وعين الماء والشجرة، إذ تنتشر، غالبا، حول المقام عيون الماء، ومجموعة من أشجار السنديان (البلوط) وهذا يدل على الارتباط الانتاجي والديني مع المقامات[5].

---

[1] ينظر: كنعان، توفيق: الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين. ص27.

[2] ينظر: شوامرة، عوني: تاريخ البيرة مع معالمها الأثرية. فلسطين: وزارة السياحة والآثار، 2015، ص190.

[3] عياش، خالد: الجن في الأدب الشعبي الفلسطيني. ص42.

[4] ينظر: حنيطي، أحمد: مقام سيدي شيبان. ص4

[5] ينظر: حنيطي، أحمد: نفسه. ص12

وهذا يعود بنا إلى فكرة الخصب والتجدد في الفكر الأسطوري في الحضارات القديمة، حيث تكفلت الآلهة بضمان العودة من عالم الأموات، من خلال الممرات المائية، لتعود الخضرة والحياة للأرض بعد الموت نتيجة غياب الآلهة في دورة حياتها بين العالم العلوي والعالم السفلي.

وكما مارس الإنسان القديم شعائره وطقوسه الأسطورية لضمان عودة إله الخصب من عالم الأموات، بالقرب من عيون الماء، ومجاريها، فقد مارس الفلسطيني الشعائر بالقرب من المقامات والمزارات، ومنها الاستمطار وحلاقة شعر الصغير وحمام العريس من طقوس الخصب التي أقيمت بجوار عيون الماء أو مجاري الأودية، فقدم النذور، وأشعل الشموع، ونظف المقام، وعلق على جدرانه المناديل البيضاء التي ترمز إلى الانتقال من حياة إلى أخرى.

ومما يقال عند هذه المقامات من أدعية:" اللهم استحلفك برسولك، وبصاحب هذا المقام، أن تحل بركاتك أثقالي وهمومي، على الله وعليك يا صاحب المقام"[1].

عيون الماء والاستشفاء

تحدث ميشيل كورت عن بعض المعتقدات الشعبية، وما اتصل بها من طقوس وممارسات وعبادات في الحضارات المتعاقبة، ومن بين تلك الطقوس ما اتصل منها باعتقاد الإنسان بفاعلية ماء الينابيع في شفاء المرضى، تحت مسمى المياه الشافية[2].

واعتقد الفلسطيني بقدرة ماء العيون على الشفاء من بعض الأمراض، وهو معتقد قديم أشارت إليه الباحثة في التمهيد، وعلى نحو ما نجده في اعتقاد الفلسطيني بقدرة ماء عين أبو نياق أو عين البنيات في دير غسانة، وماء عين الوهرة في كفر توت، وماء عين صوبا، على شفاء المريض، وخاصة الشفاء من

[1] أبو هدبة، عبد العزيز وآخرون: المجتمع والتراث الفلسطيني: قرية ترمسعيا. البيرة: جمعية انعاش الأسرة، 1987، ص160.

[2] ينظر: كوت، ميشيل: التراث الثقافي للماء. ط2، المجلس الدولي للآثار والمواقع، 2019، ص11.

مرض حصر البول، والأمراض الجلدية، وتزداد هذه القدرة في حالة العيون التي لا تصلها أشعة الشمس[1].

إن الاعتقاد بقدرة ماء العيون المظلمة على الشفاء، لعدم وصول أشعة الشمس إليها نابع من الاعتقاد القديم أن الشمس في أحد وجيهها رمز طبيعي لإله الموت، فإذا ما وصل الشعاع الشمسي لهذه العين انعدم الخصب والشفاء من مائها، لأن الشمس في أحد وجيهها تدل على الموت بحممها، وحرارتها القاسية، لذلك يحذر(حن) إله الشمس القاتل الإله بعل إله الخصب من حرارته الملتهبة:

نير الآلهة، الشمس

المحرقة، جبارة السموات

لأنها حبيب الإله موت"[2].

ومن ذلك أيضا، فقد مارست المرأة الفلسطينية بعض الطقوس بجوار ينابيع الماء من أجل الانجاب، للاعتقاد الشعبي أن العقم ناجم عن عارض من الجان، أو من الأرواح الشريرة، فتلجأ إلى ولي، أو رجل يشهد له بالصلاح، أو فقير، ويكتب لها رقية، أو أدعية، أو آيات قرآنية، تقوم المرأة العقيم بغسلها بماء النبع، وشرب مائها، أو الاغتسال بها بالقرب من النبع[3].

عيون الماء والمعتقدات الدينية

من خلال تتبع المعتقدات الشعبية في الحضارات القديمة، وفي الثقافة الشعبية الفلسطينية، فإن جوهر هذا الاعتقاد يدور حول سيطرة قوة خفية غير الإنسان على ينابيع الماء، وقد تعددت صور القوة المسيطرة على هذه الينابيع على امتداد الحضارات، فتارة تنسب إلى الآلهة، آلهة الخصب والجدب، وتارة إلى الجن، وتارة أخيرة إلى الأرواح الخيرة أو الشريرة.

---

[1] ينظر: كنعان، توفيق: الينابيع المسكونة بالجن وعفاريت الماء في فلسطين. ص217.

[2] فريحة، أنيس: ملاحم وأساطير من أوغاريت. ص43.

[3] ينظر: الجوهري، محمد وآخرون: الدراسات العلمية للعادات والتقاليد الشعبية. مصر: دار المعرفة الجامعية، 1988، ج3، ص310.

وفي خضم هذا الاعتقاد فإن الإنسان لجأ إلى ممارسة الطقوس والشعائر بجوار عيون المـــاء، واعتقـــد بفاعليتها في ضمان رضا الآلهة أو الجن أو الروح، وتجنب سخطها، ومن ثم ضمان الخصب، وجريان الماء في الينابيع.

مثل هذه المعتقدات تمثل الجانب الروحي في الفكر البشري، وهي ضرورية لتمكين الإنسان من القيـــام بأعمال السيطرة على البيئة المحيطة به، ومنها تلبية متطلباته المائية بشكل مستدام، ومـــن ذلـــك تقـــديم القرابين والنذور لينابيع الماء في حضارات متعاقبة، وثقافات متنوعة في أنحاء العالم[1].

وقد رأى بعض الباحثين أن " كثيراً من أهالي القرى والريف الفلسطيني كانوا يقدمون القرابين للأرواح التي تسيطر على عيون الماء في تلك القرى، من أجل أن يتنعم أهلها بالماء، عن طريق ضمان رضـــا الأرواح الخيرة، وتجنب غضب الأرواح الشريرة المسماة بالغول أو المارد، بهذه القرابين"[2].

واتصالا برغبة الإنسان في الحصول على الخصب، لاعتقاده بقدرة الروح المسيطرة على النبـــع، فـــإن المرأة الفلسطينية، إلى عهد قريب، كانت تزور نهر روبين، أو مقام النبي روبين جنوب يافا، للحصـــول على البركة والخصب والاستقرار مع زوجها، وكانت تردد بجواره عبارة: (يا بتروبيني يا بتطلقنـــي)، ومثلها كان يفعل بقية الناس لضمان الحصول على البركة، فيقيمـــون بجـــواره المعرشـــات، ويـــؤدون الطقوس والصلوات والأدعية، للحصول على البركة[3].

ونظرا لاتصال المقامات بمصادر المياه، حيث إن معظم المقامات في فلسطيني أقيمت بجـــوار الينـــابيع والأودية، أو بجوار بئر عميقة، فقد غدا المقام مزارا للنساء اللواتي تعسر حملهن، ومن ذلك ما أوردتـــه الباحثة ظاهر في حديثها عن الطقوس الممارسة في ريف نابلس، أن النساء كنّ يزرن المقام، وينـــذرن النذور، كتنظيف المقام، وإضاءته، إذا تحقق حبلهنّ[4].

---

[1] ينظر: كوت، ميشيل: التراث الثقافي للماء. ص11.

[2] حسين، عماد: عليك الأمان...العيون المسكونة بالأرواح. موقع مترا، 3\يوليو 2020: https://metras.co/

[3] ينظر: الفار، مصطفى: مدينة اللد. ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2009، ص206.

[4] ينظر: ظاهر، نداء: الطقوس والموروثات الشعبية في الأدب الشعبي الفلسطيني بريف مدينة نابلس. رسالة ماجستير، جامعة النجـــاح الوطنية، نابلس، 2017، ص24.

الفصل الثالث

عيون الماء في أشكال الأدب الشعبي الفلسطيني

تمهيد

تتبع أهمية الموروث الشعبي من دلالاته ورموزه، المتصلة بالهوية الفلسطينية الأصيلة المتوارثة عبر الأجيال، فكلما كانت الجماعة غنية برموزها الثقافية والحضارية وموروثاتها الفنية والأدبية، كانت هويتها متماسكة ناضجة حاضرة في نفوس أبنائها، وتتنوع هذه الرموز بحسب مصدرها إلى قسمين، المصدر الرسمي الذي يمثل الحضارة والثقافة العليا، ويتمثل في القوانين والأنظمة الرسمية في الدولة، والمؤسسات التعليمية والدينية والثقافية، والمصدر الشعبي الذي يمثل عامة الشعب، ويتمثل في الطقوس والموروثات الشعبية والعادات والتقاليد[1].

ونظرا للعلاقة الوثيقة بين الفلسطيني وأرضه، ولأهمية الماء في حياته التي تقوم على الفلاحة ورعي المواشي، فقد اهتم بمصادر المياه، وأحاطها بالرعاية، حتى أصبح الماء يدخل في معتقداته الشعبية، واستقى منها الممارسات والمعتقدات التي من شأنها ضمان توافر الخصب المائي، وهو سبب رئيس في اقتصاده ومعيشته واستمرار حياته.

والأدب الشعبي لون من ألوان الموروث الشعبي، ويطلق على الموروثات القولية فيه، وهو أدب مجهول المؤلف، عامي اللغة، متوارث من جيل لآخر بالرواية الشفوية"[2].

وبما أن المورث الشعبي صدى لحياة الأمة الصادر عنها، وديوانها في تصوير جوانب حياته المختلفة، المادية والروحية، فإن أشكاله القولية زاخرة بأشكال التعبير عن حضور عيون الماء فيها، وبدلالاتها المتصلة بالموروث القديم، غير أن اللافت في استقراء أشكال الموروث الشعبي القولية هو عدم التفريق

---

[1] ينظر: الديك، إحسان: موروثنا الشعبي نبض هويتنا. ورقة بحثية مقدمة إلى مؤتمر التراث الشعبي الفلسطيني السادس بعنوان: "مؤتمر التراث الشعبي في محافظة جنين والجليل: هوية وانتماء"، جامعة القدس المفتوحة، فرع جنين، 8\11\2017، ص2.

[2] النصار، حسين: الشعر الشعبي العربي. ط2، بيروت: منشورات إقراء، 1980، ص11.

بين مصادر الماء: (الوادي والنهر والنبع والعين والبئر) في التوظيف، وتعلل الباحثة ذلك بتلاقي دلالات الرمز المائي في أشكاله المختلفة، إذ إن معظم المعتقدات الشعبية المتوارثة اهتمت برمزية الماء نفسه، ومدى فاعليته في حياة الإنسان، بغض النظر عن مصدره، فليس من المهم عند الفلسطيني دلالات العين أو البحر أو الوادي أو البئر، بقدر أهمية الماء نفسه في هذه المصادر، وقد تخلو قرية من عين ماء، إلا أن المعتقدات حولها حاضرة في مصدر آخر، بحسب البيئة الجغرافية التي يعيش فيها الإنسان الشعبي.

وفي هذا الفصل تتبع الباحثة توظيف عيون الماء في الفنون القولية من الموروث الشعبي، وتسلط الضوء على المعتقدات الشعبية حولها، وربطها بالمعتقدات الشعبية الفلسطينية والقديمة، حول عيون الماء، على نحو ما جاء في التمهيد والفصل الأول من هذا البحث.

أولا: عيون الماء في الأغنية الشعبية

الأغنية الشعبية جزء من الموسيقا الشعبية، ويطلق مصطلح الموسيقا الشعبية، أو الموسيقا الفولكلورية، على "سائر الممارسات الموسيقية الخاصة بجماعات الثقافة الشعبية، وهي حصيلة تراث من الألحان والآلات والأدوات، وهي تلك التي تكون الحنجرة مصدرها الوحيد، وتؤديها الفئات الشعبية، دون مصاحبة الآلات الموسيقية"[1].

وتجمع الأغنية الشعبية بين الرواية الشفوية ومهارة الإلقاء، فهي ملك لعامة الناس، مع أنهم لم يصنعوها، وفي الوقت نفسه هي نتيجة حصاد المهارة الفنية الفردية، من خلال عمل عدد غير محدد من المغنين الشعبيين الذين ساهموا في أن تصل إلينا[2].

---

[1] موسى، أحمد: تراث الموسيقا الشعبية الفلسطينية – خصائصه ومقوماته وطرق الحفاظ عليه. مجلة جامعة النجاح، فلسطين، المجلد(23)، العدد(1)، 2009، ص99.

[2] ينظر: خراز، تمام: الزجل الشعبي الفلسطيني. بحث جامعي، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2009، ص12.

وثمة مميزات وخصائص تمتاز بها الأغنية الشعبية عن ألوان الشعر الشعبي الأخرى، فهي لا تعتمد على الفردية، بل هي جماعية الأداء، كما أنها تعبر عن مشاعر العامة لا عن مشاعر مغنيها فحسب، وهي نتيجة جهد جماعي، صالحة لأكثر من زمان، مما يمنحها الديمومة، وهي ليست ملك شاعر بعينه، ومن حيث المضمون والموضوعات هي جزء من الثقافة، ومن خلال رموزها وعناصرها تعكس التطور الفكري لشعب من الشعوب، عبر مراحل التاريخ المتلاحقة، وتشمل كل ما أنتجته الحضارة الصادرة عنها عبر العصور المتراكمة[1].

وتكمن أهمية الأغنية الشعبية من حيث المضمون في أنها تعبر عن ثقافة الأمة الصادرة عنها، وعن ملامح هويتها التي تنتمي إليها، كما تحمل في نصوصها جملة من المعاني والقيم، فقد مكنت الأغنية الشعبية الإنسان الفلسطيني على اختلاف مستواه الثقافي من خلق مجالاً حيوياً خصباً للتفاعل مع الذاكرة الجماعية المعبرة عن نبض الشعب، وروحه، وكيانه"[2].

فالأغنية الشعبية لون من ألوان الأدب الشعبي، وتقوم بوظيفة التعبير عن اللاشعور الجمعي، وتكشف عن اهتماماته الروحية، وخلجاته النفسية، ويترك فيها كل جيل أثره، وهي من أكثر فنون الأدب الشعبي شيوعا وأهمية، تهتم بالكلمة واللحن معا، وتستوعبها حافظة الجماعة، وتتناقلها شفاها، ويردها المجموعة من مناسباته المختلفة، الفرح والحزن، والخير والشر، والسرور والغضب، وتقوم بوظيفة تختلف عن وظيفة الكلام الدارج[3].

ويضاف إلى أهمية الأغنية الشعبية الفلسطينية في التعبير عن الجذور الحضارية الضاربة في أعماق التاريخ، أهمية التعبير عن الواقع المعيش، فقد " تمثلت الأغنية الشعبية الفلسطينية الهوية الوطنية خير

---

[1] ينظر: علقم، نبيل: مدخل لدراسة الفولكلور، ص41.

[2] ينظر: موسى، إبراهيم: صوت التراث والهوية...دراسة في التناص الشعبي في شعر توفيق زياد. مجلة جامعة دمشق، المجلد(24)، العدد(1+2)، 2008، ص105.

[3] ينظر: الديك، إحسان: النماذج البدائية في الأغنية الشعبية الفلسطينية: أغنية (بكره العيد وبنعيد). نموذجا، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد(24)، العدد(7)، ص2071.

تمثيل في مواكبتها لنضال شعبنا، وغرّفها من عمق الواقع الفلسطيني، وتعبيرها رغبات الشعب الفلسطيني وآماله في الحرية والاستقلال"[1].

وقد عبرت الأغنية الشعبية الفلسطينية بشكل جلي عن علاقة الفلسطيني بمصادر الماء المختلفة بشكل عام، وبالعيون بشكل خاص، على نحو ما نجده في النماذج الآتية.

يقول موسى حافظ:

حِبابي ارجَعوا لِلصوب وِالـيَم[2] لَصوب النَبِع والبُستان وِالـيَم[3]

تايرجع ابِن أَحمد وِابن وِلـيم يغنوا لِلوَطَن أَجمَل عِتاب[4]

فنبع الماء في نص موسى حافظ من الأغنية الشعبية يحمل دلالات الخصب والعودة والحياة، فهنا يتمنى الشاعر الشعبي أن يلتم شمل الشعب الفلسطيني، ويعودوا إلى ديارهم، بعد أن فرقهم الاحتلال الصهيوني، وشردهم بعيدا عن أرضهم.

والنبع في هذه الدلالة يتلاقى مع الاعتقاد الشعبي القديم الحديث حول قدرة عيون الماء على تحقيق عودة المفقود، فمن خلاله يعود الإله بعد موته من العالم القديم، ومن خلاله بحث الجاهلي عن أبي المغوار، ومن خلاله بحثت الأم عن ابنها المفقود في نبع زواتا الفلسطينية، كما مر معنا، وهنا يبحث موسى حافظ من خلال رمزية النبع عن حلم العودة.

ومن معاني الخصب لعيون الماء في الأغنية الشعبية الفلسطينية في زريف الطول لموسى حافظ:

بِمَرَة إِسأَلت امي ثُم بَيه

يا إمي عَن زَمَنكِي خَبرينا

---

[1] ينظر: الديك، إحسان: موروثنا نبض هويتنا. ص5.

[2] الجهة.

[3] البحر

[4] حافظ، موسى: فنون الزجل الشعبي الفلسطيني. القدس: منشورات البيادر، 1988، ص22.

قَلَتلي يَا بِنيه وَانا صَبيه

كُنّا ناس نِحيا فَلاحينا

وكِنّا نِلبَس ثياب الغِية

ونِنزل عَ النَّبعَة واردِينا[1]

فالشاعر الشعبي موسى حافظ هنا يتغنى بالماضي، من خلال الحوار الذي أجراه بين الأم وابنها، ويتحسر على أيام السعادة والبساطة التي كان يعيشها الفلاح الفلسطيني، وذكر من بين ذلك جانبا من حياة المرأة الفلسطينية، التي كانت ترد نبع الماء لجلب الماء، فكان النبع في حياتهم مصدر رزقهم، وسببا من أسباب معاشهم، لا يتحقق الخصب دونه، ولا تكون الحياة في جفافه.

ومن معاني الخصب في الأغنية الشعبية ذلك التوحد بين الإنسان وعين الماء، فقد مر معنا أن في الثقافة الشعبية القديمة والثقافة الشعبية الفلسطينية معتقد مفاده أن ثمة إنسان(عبد أبيض، امرأة)، أو روح خيرة، تسيطر على عين الماء، وتضمن استمرار تدفق مائها، وقد عبرت الأغنية الشعبية عن هذا التوحد في مثل:

يا شبنا يا كبير جودك علينا زي بحر النيل

يا شب عاود لهم عاود وأنت طويل البال ومهاود[2]

فالمناداة بالعودة للشب المفقود المسؤول عن الجود في هذا النص، يذكرنا بتلك الطقوس التي كانت تقدم لآلهة الخصب في الفكر القديم، لضمان عودتها، وبعودتها يعود الخصب، كما يذكرنا بالطقوس التي مارسها المصري القديم، المتمثلة بعروس النيل، التي كانت تقدم قربانا لضمان استمرار جريانه.

---

[1] القاسم، نبيه: الحركة الشعرية الفلسطينية في بلادنا. ط1، كفر قرع: 1985، ص207.

[2] عودة، عمر: البكائيات الشعبية الفلسطينية. 236.

واللجوء إلى عيون الماء، أو مرادفاتها، أو إلى ما اتصل بها من أشكال مائية كالبحر، لطلب الحياة بعد الموت، والخصب بعد القحط، والعودة بعد الفراق، من أهم المضامين التي تناولتها الأغنية الشعبية الفلسطينية، ومن ذلك:

هدي يا بحر هدي طولنا بغيبتنا

ودي سلامي ودي للأرض اللي حبتنا[1]

ولوعي الفلسطيني الشعبي بدلالة الخصب والحياة التي يحملها الماء، وأماكن تواجدها في الأنهار والأودية والعيون والآبار، فقد حرصت الأغنية الشعبية الخاصة بالأعراس على تمثيل هذا الرمز، على نحو الزغرودة التالية:

إي وي ها... جيت اغني وقبلي ما حدا غنا

إي وي ها... بقاع وادي فيه الطير يستنا

إي وي ها... وريتك با محمد بهل العروس تتهنا

إي وي ها... وتضل سالم ويضل الفرح عنا[2]

فقد اجتمع في هذا النص مجموعة من الرموز الدالة على الخصب والحياة، وهو ما يتناسب مع المناسبة التي قيلت فيها، وهو العرس الفلسطيني، فالغناء وقاع الواد، والطير، جميعها من رموز الحياة والتجدد والخصب.

ومنها أيضا:

لأنصب خيمة عل المية وارحل ما فيش لو بعنا ميرميا وزعتر بنعيش[3]

---

[1] موسى، أحمد: تراث الموسيقا الشعبية الفلسطينية – خصائصه ومقوماته وطرق الحفاظ عليه. ص99.

[2] البرغوثي، عبد الطيف: الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن. ص43.

[3] جاد الله، خليفة: الأدب الشعبي في فلسطين: أغاني النساء أنموذجا. بحث مقدم إلى المؤتمر الفني الثالث للفن والتراث الشعبي الفلسطيني: واقع وتحديات. نابلس، 2011، ص26.

فالفلسطيني يعبر من خلال هذه الأغنية الشعبية عن معاني الصمود والتحدي، فهو صامد في أرضه أمام كل محاولات الطمس والتهويد والتشريد، ويعزز هذا الصمود بالسكن قرب عيون الماء، لكون الماء أساس الحياة، وقرب عيونه سكن الفلاح الفلسطيني، ووجد فيها معاني الخصب الحقيقية والموروثة.

ومنها أيضا زاريف الطول:

يا زاريف الطول ورايح على العين ملي الجرة والصابيا على الصفين[1]

فقد اجتمع بجوار عين الماء معاني الحب والخصب والحياة، وصحيح أن الشاعر الشعبي وظف حضور الفتيات بجوار العين توظيفا دالا على العشق والغزل، إلا أنه بهذا التوظيف استحضر من الذاكرة الجمعية الشعبية، دون وعي منه، تواجد الفتاة الجميلة بجوار العين، والتي تحاول إغراء الشباب في المعتقد الشعبي، كوجه من وجوه التوحد الذي تحدثنا عنه بين عين الماء والمرأة، ونتيجة لتلاقي المرأة مع عين الماء في دلالة الخصب.

ومثل هذا الاستحضار ما نجده في أغنية جفرا:

جفرا يا هالربع نزلت على العين

جرتها فضة وذهب وحملتها للزين[2]

فتلك الفتاة الجميلة نزلت بجوار عين الماء، وقد استحضرت الأغنية الشعبية الذهب والفضة مع وجود الفتاة للدلالة على معاني الإغراء للشاب المزيون القادم إلى العين، وهو ما وجدناه في المعتقدات الشعبية حول عيون الماء، ومفادها أن فتاة مزيونة تخرج من العين، تغري الرجال ليلاحقوها.

---

[1] علقم، نبيل: مدخل لدراسة الفولكلور. ص56.

[2] البرغوثي، عبد الطيف: الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن. ص56.

ومثل ذلك الأغنية الشعبية:

مـــا حـــلا الـــدار والـــديرة ونبـــع الفـــوار والزينـــــات ع النبعـــــة يعبـــين جـــــرار

هـــب الشـــوق شـــوقني بالغربـــة تعـــود شـــو مشـــتاق يروينـــي ابريـــق الفخـــار[1]

فمن الملاحظ على هذا النص حضور رمز الخصوبة المتمثل في المرأة، وقد توحدت دلالـــة الخصـــوبة والحياة فيها من نبع الماء، كذلك حضور معاني العودة بعد الفراق، بعد أن شرد الشعب الفلسطيني مـــن أرضه، فيطلب بجوار نبع الماء العودة إليها، وطقوس العودة والخصب طقوس حاضرة بجـــوار عيـــون الماء في الفكر المتوارث وما يتصل به من معتقدات شعبية.

وكما دلت عيون الماء على الخصب والحياة والتجدد، فإنها تحمل معاني الموت والحزن والفراق، لـــذلك نجدها ماثلة في البكائيات، وهي لون من ألوان الأغنية الشعبية، تقابل أغاني الفرح، وتعبر عن الحـــزن والحسرة عند الموت والغياب والبعد، ومن ذلك:

شـــــــــــبابنا ورْدَتْ عَ البيـــــــــــارة وتْقصَّـــفوا قصـــف الـــورد يـــا خســـارة

شـــــــــــبابنا ورْدَتْ عَ راس العـــــــــين وتْقصَّـــفوا قصـــف الـــورد يـــا قشـــيلي[2]

هذا الربط بين الموت وورود عين الماء في الثقافة الشعبية، إنما هو معتقد شعبي متوارث أن عين الماء موصلة إلى عالم الأموات، وهي المسؤولة عن الأرواح المفقودة.

ثانيا: الحكاية الشعبية

إن من يلتفت إلى التراث الشعبي الفلسطيني سيدرك مدى غزارتـــه، وتعـــــدد مجالاتـــــه وجوانبـــــه المختلفة، ومن هذا التراث تطالعنا الحكاية الشعبية كنوع من الفن القصصي القائم على النقل والروايـــة الشفهية، منذ أجيال بعيدة خلت، توارثت هذه الحكايات.

---

[1] جاد الله، خليفة: الأدب الشعبي في فلسطين: أغاني النساء أنموذجا. ص26.

[2] عودة، عمر: البكائيات الشعبية الفلسطينية. 228.

تعرف نبيلة إبراهيم الحكاية الشعبية، مستعينة بما ورد في دلالة المصطلح في المعاجم الأجنبية، فهي: "الخبر الذي يتصل بحدث قديم، ينتقل عن طريق الرواية الشفوية، من جيل إلى جيل، أو هي خلق حر للخيال الشعبي، ينتجه حول حوادث مهمة، وشخوص ومواقع تاريخية"[1].

وقد استطاعت الحكاية الشعبية " أن تثير قضايا عديدة تتصل بسلوكات عبر فيها أفرادها عن واقعهم الاجتماعي، ويتبين من خلالها مجموع القيم التي تمثل هوية الأمة التي ينتمي لها أشخاصها، في جوانبها المتعددة: الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية والوطنية، وبالتالي يمكننا الإشارة إلى قدرة هذا الجنس الشعبي الأدبي على حمل الواقع الاجتماعي، ونقل الثقافة العربية عامة"[2].

وتتعرض الحكاية إلى التغيير بالزيادة أو النقصان أو التعديل على أحداثها وشخوصها ومكانها، ومرد ذلك بالدرجة الأولى اعتمادها على المشافهة في التوارث من جيل إلى جيل، وكذلك تأثرها بعصر الراوي وبيئته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومع هذا لا بد أن يتوفر فيها عناصر القصة، ويضاف إلى تلك العناصر أنها من إنتاج الخيال الشعبي، تعالج حدثا معينا، أو مضمونا ما، ويتوفر فيها عنصر التشويق والاستمتاع، الأمر الذي يجعلها تتناقل شفويا من جيل إلى آخر، وفي كل جيل يُضفى عليها طابع عادات المجتمع وتقاليده وما يتصل بثقافته الشعبية[3].

يرى بعض الباحثين والمعنيين بالتراث وتصنيفه أن وظيفة الحكاية الشعبية هي التعويض عن عدم مقدرة الإنسان على تحقيق رغبات معينة، كان من الصعب عليه تحقيقها، أو هي شكل من أشكال الإسقاط النفسي، والحكاية الشعبية الفلسطينية ليست بمعزل عن هذا التفسير، لذلك ذهب رأي إلى رؤية

---

[1] إبراهيم، نبيلة: أشكال التعبير في الأدب الشعبي. ط1، القاهرة: دار مكتبة غريب للطباعة، 1991، ص19.

[2] نهاري، حنان والغازي: ترجمة الحكاية الشعبية من الموروث الجزائري: بقرة اليتامى انموذجا. رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر، الجزائر، 2015، ص5.

[3] ينظر: يونس، عبد الرحمن: الحكاية الشعبية. ط1، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1968، ص11.

الحكاية والقصص الشعبي الفلسطيني على شكل تعويض نفسي اجتماعي عن جملة من الحاجات والتطلعات المختلفة للمجتمع والأفراد[1].

وعند الباحثين نادر قاسم وديانا ندى الحكاية الشعبية تعبير إنساني، وهي نمط أدبي اختاره الإنسان ليكون أداة، لنقل أفكاره ومعتقداته وفلسفته في غلاف من التسلية والتشويق، يجعل الحفاظ عليها أمرا حتميا، لذلك تمثل جانب من ثقافة الشعب، وحياته الروحية، فضلا عما تحمله من لمحات تاريخية، لها دلالاتها الخاصة، وتعبر عن حب الإنسان للعدل والحرية والسلام، كما تعد مصدرا خصبا من مصادر دراسة تفكير الشعوب، ورؤيتها للكون، ومعرفة مواقفها من القضايا الجوهرية[2].

تعرض الباحثة في هذا الباب من البحث بعض الحكايات الشعبية الفلسطينية، وتتبع توظيف عيون الماء فيها، كما تسلط الضوء على رمزية هذا التوظيف ودلالته، وعلاقته بالمعتقدات الشعبية الفلسطينية الموروثة، حيث تتناول مجموعة من الحكايات التي تناقلها بعض الباحثين، أبرزها:

1. **حكاية (الحطاب)**[3]

كان الحطاب الفقير يسير في واد، ويتسلى بأكل حب الفول، وفي إحدى المرات، وهو بقرب بئر عميقة، رمى بإحدى حبات الفول تجاه فمه، فأخطأته ووقعت في بئر قديمة، فجلس الحطاب بالقرب من فوهة البئر وراح يبكي، ويقول: يا حبة فولي يا رادة جوعي، وكانت البئر مسكونة بجماعة من الجن، استمعت لشكواه، فتشاورت جماعة الجن وأعطته باطية للطعام، يطلب منها ما يشتهي من الأكل والشرب، فيتحقق طلبه على الفور.

---

[1] ينظر: شحادة، عبد الفتاح: حول الحكاية الشعبية الفلسطينية وقصص الأطفال. ورقة عمل مقدمة إلى اليوم الدراسي بعنوان "أدب الأطفال في فلسطين: واقع ومستقبل، المنعقد بتاريخ 2008/3/30م في مركز القطان للطفل، ص21.

[2] ينظر: قاسم، نادر وندى، ديانا: الحكاية الشعبية في شعر وليد سيف. مجلة جامعة النجاح الوطنية، المجلد(30)، العدد(6)، 2016، ص1137.

[3] ينظر: كناعنة، شريف: الحطاب حكاية شعبية فلسطينية. ط1، رام الله: دار الشروق، 2004، ص1_23.

أشرنا في مقدمة هذا الفصل إلى أن البئر من مصادر الماء في حياة الفلسطيني، وهي النظير المقابل لعين الماء في الذهن الشعبي، ويجمعهما من الناحية الجغرافية أن كلتيهما في باطن الأرض، وتتلاقى المعتقدات حوله مع المعتقدات التي توارثها الفلسطيني حول عين الماء.

تصور حكاية الحطاب المعتقد الشعبي بوجود جن تحرس البئر، وتسيطر عليها، وهو امتداد للاعتقاد بسيطرة الآلهة أو الأرواح على عيون الماء، وأن هذه القوى (الآلهة أو الجن أو الروح) قادرة على جلب النفع والخصب للإنسان، أو إلحاق الأذى والضرر به، فمنها المسؤولة عن الخير والخصب، ومنها المسؤولة على الشر والموت والقحط، وفي الحكاية، صادف الحطاب القوى المسؤولة عن الخصب، وقد قدمت له الطعام.

2. حكاية (غزالة)[1]

تضمنت الحكاية غزالة يلاحقها الصياد كلما ذهب إلى الصيد بجوار عين الماء، ولم يقدر على اللحاق بها، وذات يوم أشبع فرسه، واستطاع أن يلحق بها وسط الغابة، فإذا بها تتحول إلى فتاة، وتصيب الدهشة والذهول هذا الصياد، ويعرف منها أنها فتاة في جلد غزال، فأحبها الصياد وتزوجها.

وفي الحكاية تتحول بنت أخرى إلى غول، وجدها الصياد في المكان ذاته، الذي وجد فيه الغزالة، وعندما اتضح أمرها تزوجها هي الأخرى.

تكشف هذه الحكاية عن الاعتقاد بقدرة الأرواح التي تسكن عيون الماء على التحول والحلول، وغالبا ما تحل في جسد حيوان كالغزال أو الغولة، تبقى قريبة من عين الماء.

كما تكشف من خلال التمثيل الحيواني فيها عن انقسام الأرواح المسيطرة على عيون الماء إلى أرواح خيرة (الغزالة)، ترمز إلى الخصب والحياة، وأرواح شريرة (الغولة)، ترمز إلى القحط

[1] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ط3، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2008، ص141.

والموت، وبالعودة إلى الماضي البعيد فإن الآلهة تنقسم إلى آلهة الخصب وآلهة الموت، في مختلف الحضارات.

3. حكاية (وهل يكفي الحظ)[1]

تكشف الحكاية عن قدرة ماء العيون السحرية، بفعل الأرواح التي تسكنها، فماؤها قادر على تحويل الإنسان إلى حيوان، فقد حول ماء العين في الحكاية لون الحمامات من لون أبيض ناصع، إلى لون أسود فاحم كلون الغراب، عندما شربن منه قبل زوال الشمس، وعندما تدخل بطل الحكاية بمنعهن من الاقتراب من ماء العين رجعن إلى أصلهن الإنساني.

4. حكاية (الطيور البيضاء)[2]

تخلصت زوجة الأب من أبناء الملك بأن حولتهم الغولة إلى طيور بيضاء، وحولت وجه البنت الوحيدة إلى وجه قبيح، بعد أن كان غاية في الجمال، وقد ظل حال هذه البنت إلى أن وصلت إلى الغابة، وفيها رأت نبع ماء جار، فغسلت وجهها بمائه؛ فعاد كما كان.

5. حكاية (بنات حبة الرمان)[3]

يسمع شاب فارس عن جمال فتاة تعيش في الغابة، فيذهب إلى الغابة باحثا عنها، ولكنه وجد غزالة، لاحقها، ولكنه لم يستطيع الإمساك بها، فاختبأ خلف الشجرة بالقرب من عين الماء التي تأتي للشرب منها، وأخذ يراقبها، وعندما قدمت الغزالة خلعت جلدها الحيواني، وظهرت في صورة فتاة جميلة، أرخت شعرها، واخذت تلهو بماء العين، اقترب منها الشاب، وعبر عن حبه لها، وطلب يدها للزواج فقبلت.

---

[1] ينظر: الغول، فايز: الدنيا حكايات. القدس: المطبعة العصرية، (د.ت)، ص22.

[2] ينظر: البوجي، محمد: التراث الشعبي والمواجهة. ط2، غزة: مطبعة القدس، 2011، ص366.

[3] ينظر: البوجي، محمد: نفسه. ص279.

وقد أشار الباحث عماد حسين إلى أن من يسكنون بجوار عين منجد وعين بيتين في رام الله يعتقدون أن العينين مسكونتان بعروسة، تتحول إلى ماعز إذا مر أحد بجوارها، فيلحقها، وتبدأ الماعز بعدها بالقفز من صخرة إلى أخرى، حتّى تصل بالرجل إلى بقعة خالية، وعندها ترجع عروسة، وتَغوي الرجل، كما يعتقد البعض أن الروح التي تسكن عيون الماء تخرج ليلا على شكل الجمال والخرفان، باحثة عن العشب[1].

6. حكاية (بليبل الصياح)[2]

تشير إلى قدرة ماء العيون والأنهار على الانقاذ من الموت والخلاص، فماء النهر في الحكاية هي التي أنقذت أطفالا صغارا ألقت بهم الخالة في صندوق خشبي، وحمل الماء هذا الصندوق إلى مكان بعيد، إلى أن عثر عليه رجل فقير، وقام بتربيتهم عنده.

وهذا الاعتقاد منبثق من الاعتقاد بقدرة ماء العيون على شفاء المريض، وإرجاع المفقود، من خلال الممارسات والطقوس التي مارسها الإنسان القديم والجاهلي والفلسطيني الشعبي.

7. حكاية (تفاح الحبل)[3]

يرى فيها البطل وجه فتاة جميلة كلما نظر إلى الماء داخل العين، فوقع في حبها، وأخذ يبحث في الغابة عن صاحبة هذا الوجه، ولم يعثر عليها، وقرر في نفسه أن يراقب العين من فوق شجرة قريبة منها، وذات يوم اقتربت غزالة من العين، فتحولت إلى فتاة جميلة، فاكتشف البطل أنها صاحبة الوجه الجميل الذي رآه في العين، واقترب منها وعرض عليها الزواج، وكان له ما يريد.

---

[1] ينظر: حسين، عماد: عليك الأمان...العيون المسكونة بالأرواح. موقع مترا، 3ايوليو 2020: https://metras.co/

[2] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص102.

[3] الحاجة لطيفة، العمر(73) سنة، من سكان قرية عسلة في محافظة قلقيلية.

ولعل ما كشفت عنه هذه الحكاية الشعبية متصل بالاعتقاد بأن أرواحا خيرة أو شريرة تسكن عين الماء، وقادرة على الحلول في جسم حيوان، كما أنه متصل بدلالة الخصب المجتمعة في عين الماء والـزواج والحب.

8. حكاية ودعة مفرقة سبعة[1]

تقف فيها الفتاة ودعة بجوار عين ماء، تمد رجليها داخل الماء، لاهية مستمتعة، وعندما جـاءت إليهـا خادمة اسمها ستوت، وطلبت منها أن ترفع رجليها، لتعبئ الماء رفضت ودعة، عندها ذكرتها الخادمـة باسمها ودعة مفرقة سبعة، وتقصد بهذا الاسم أنها مفرقة لسبعة أخوة، وهؤلاء الأخوة كانوا قـد تركـوا البيت ونذروا ألا يعودوا إليه إلا إذا جاء لهم أخت مزيونة، وعندما ولدت أمهم أختهم ودعة طلبت مـن الخادمة ستوت أن تخبرهم ليعودوا إلى البيت، لكن الخادمة أخفت عنهم الخبر، وظلوا بعيدين عن البيت، وعندما علمت ودعة بالقصة أخذت على عاتقها البحث عن أخوتها وإعادتهم إلى البيت.

وقد تضمنت الحكاية الربط بين المرأة وعين الماء، كما تضمنت معاني الحياة والعودة، والبحـث عـن المفقود، وجميعها من معاني الخصب التي تمنحها القوة السـحرية: (آلهـة الخصـب، الجـن، الأرواح الخيرة)، المسيطرة على العين.

9. حكاية (بقرة اليتامى)[2]

أرادت زوجة الأب أن تتخلص من ابني زوجها، ولد وبنت من زوجته السابقة المتوفاة، بـأن يأخـذهما أبوهما إلى الغابة، ويتركهما هناك، وهذا ما حدث، وعندما شعر الطفلان بالعطش ذهبا إلى نبع ماء، من يدخل فيه رأسه يتحول إلى غزال، وفعلا هذا ما حدث للطفل، فتحول إلى غزال بمجرد أن أدخل رأسـه في النبع، ومن يومها صار يرعى مع الغزلان، ليعود إلى أخته وهي على الشجرة ليلا، يقدم لها الطعام.

---

[1] ينظر: الأشهب، رشدي: كان ما كان: حكايات شعبية من مدينة القدس. دار علوش للطباعة والنشر، (د.ت)، ص101.

[2] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص72.

وقد تضمنت الحكاية فكرة حراسة العين بالأرواح، وسيطرتها عليها، كما تضمنت فكرة المسخ والتحول، تحول الأرواح إلى حيوان، ودلالة الخصب والحياة من خلال دلالة الرمز الحيواني الغزال، وهو رمز من رموز الشمس وآلهة الخصب في الفكر الأسطوري.

وفي الحكاية ذاتها يصل إلى نبع الماء شاب يركب حصانا، ويعثر على شعرة من شعر الفتاة، وقد كانت ترتب شعرها بجوار العين، وعندما عاد الشاب إلى الملك، ورأى الملك الشعرة حلف بأن يتزوج من صاحبة تلك الشعرة، وعندما ذهب إلى النبع الذي وجد فيه الشعرة، نظر إلى داخلها فرأى في الماء صورة فتاة جميلة، وعندما عثر الملك على الفتاة طلب منها الزواج، فاشترطت عليه أن يعيش معها أخوها الغزال، فعاشا في سعادة وهناء.

وهنا تتضمن الحكاية فعل الإغواء الذي تقوم به المرأة قرب العين، كما تتضمن معاني الحياة والخصب، ومعاني العودة، وهو ما يتفق مع الاعتقاد بأن فتاة تخرج من عين بيتين قرب رام الله، على شكل عنزة، يلاحقها رجل، فتغويه ويقع في حبها.

10. حكاية (حديد ومديد)[1]

يخرج فيها الأب مع أبنائه السبعة، وكان كلما يتعب واحد منهم يتركه ويذهب، فتأكله الغولة، إلا أن الابن السابع لم تتمكن الغولة من أكله، فقد وضعه أبوه في صندوق من الحديد، ويتضح فيما بعد أن الحكاية جرت بجوار عين ماء، فعندما عجزت الغولة عن أكله أخذت تحتال عليه بأن يخرج إلى عين الماء ليملي منها، وسكنت الغولة قبالته، وكانت كلما تذهب إلى العين تناديه: يا حديد مديد يلا انروح نملي مي، فيقول لها: يلعن أمك أنا رحت مليت وجيت، إلى أن أوقعت به بالحيلة.

وقد تضمنت القصة علاقة الغولة بعين الماء، وحلول الأرواح الشريرة في جسد حيوان، وعلاقة عين الماء بالخصب والحياة.

---

[1] الحاجة لطيفة، العمر(73) سنة، من سكان قرية عسلة في محافظة قلقيلية.

11. حكاية (جبينة)[1]

شكلت الخرزة الزرقاء التي أعطيت لجبينة في ذهابها مع البنات إلى الغابة حلقة الوصل بين الأم وابنتها، فكانت جبينة بحسب الحكاية تتحدث مع أمها من خلال هذه الخرزة، إلى أن وقعت الخرزة في عين ماء، فانقطعت جبينة عن أمها، إلى أن تنتهي الحكاية بضياع جبينة وفقدها، وفي رواية تعيش جبينة مع الغول، بعد أن تاهت في الغابة، وتلجأ جبينة في الحكاية الشعبية إلى الطيور وماء العيون الجارية، لتعيدها إلى أمها، وقد فقدت الاتصال بها، فتقول:

يا طيور طايرة يا ميّة يا سايرة
سلمي ع أمي وبوي وقوليلهم إجبينه راعية
ترعى غنم، ترعى بقر وتقيل تحت الداليّة

تضمنت الحكاية اتصال دلالة الفقد والبعد والموت بعين الماء، كما تضمنت اللجوء إلى عيون الماء لرد المفقود إلى أهله.

ثالثا: المثل الشعبي

المثل من المادة المعجمية: (مثل)، وتحمل دلالة هذا الجذر "التشبيه والنظير"[2]، وفي الاصطلاح ذكر الباحثون في الأمثال تعريفات عدة، إلا أن الجامع لها أن المثل هو: "قول موجز، سائر، صائب المعنى، تشّبه به حالة حادثة بحالة سالفة[3].

والمثل الشعبي أحد مكونات الموروث الشعبي، الذي يعبر عن تجربة الشعب الصادر عنه، وقيمه، وملامح حضارته وأبعادها، خلال مسيرة حياته، ومن هنا فإن دراسة المثل الشعبي، وتحليل ما فيه من

---

[1] ينظر: نمر، عبد الرحمن: الحكاية الشعبية: منصور بن ناصر. نابلس: منشورات الدار الوطنية للترجمة والطباعة والنشر، 2000، ص44.

[2] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب. بيروت: دار صادر، 1994، م11، ص623، مادة: "مثل".

[3] قطامش، عبد المجيد: الأمثال العربية. ط1، دمشق: دار الفكر، 1988، ص11.

رموز ودلائل، يقود إلى معرفة طريقة تفكير الفلسطيني الشعبي، ومعتقداته، وعاداته، وآماله، وهمومه، ورغباته[1].

كما يكشف المثل عن الحالة النفسية للأمة الصادر عنها، ويعبر عما علق في نفوسهم من الماضي القريب أو البعيد، وينم عن آمال الشعوب ورغباتها وطموحاتها المستقبلية، وتشكل الأمثال الشعبية، إلى جانب ذلك، مرآة للتطور الذهني والحضاري والاجتماعي والأخلاقي للأفراد، وملخصا للأحداث المفصلية عبر الأجيال[2].

والمثل شأنه شأن باقي الموروثات الشعبية الأخرى، استطاع أن يرسم لوحة دقيقة لحياة الإنسان الفلسطيني في كل ظروف حياته وعلاقته، وتعامله مع مظاهر الطبيعة والكون من حوله، وفي حلّه وترحاله، وتغيّر أحوال نفسه، في سخطه ورضاه وراحته وشقاه، وحزنه وفرحه وأمله ويأسه[3].

إذ تكمن الفائدة في جمع الأمثال، ودراستها، في أن هذه الأمثال تعد ديوان العرب، إلى جانب الشعر، فمن خلالها نتعرف إلى حياة العربي وتقاليده، وسلوك الأفراد وثقافتهم، فضلا عن المعاني والأساليب اللغوية الزاخرة بها، وهي تمتاز عن الشعر في أنها أبقى من الشعر، وتتجلى فيها مظاهر الحياة العربية، التي لم يهتم بها الشعر كثيرا"[4].

ولم يبتعد المثل الشعبي الفلسطيني كثيرا عن هذه الوظيفة، حيث "يؤرخ لمسيرة الشعب الفلسطيني في أحقاب تاريخية مختلفة، ويصور ما تخللها من أحداث، وما اعترى نفوس أبنائه من أفكار وحقائق ومعتقدات، قد تمتد جذورها إلى الحضارات القديمة، حتى غدت عبارة عن أصداء مترسبة في الوجدان الشعبي"[5].

---

[1] ينظر: جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني: سلسلة التراث الشعبي من الخابية 2، دائرة المعارف الفلسطينية، 2010، ص9.

[2] ينظر: السناد، جلال: المثل الشعبي ودلالاته الاجتماعية، سوريا: دار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع، 1992، ص8.

[3] ينظر: الديك، إحسان: موروثنا الشعبي نبض هويتنا. ص5.

[4] ينظر: زولهايم: الأمثال العربية القديمة. ترجمة: رمضان عبد التواب، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984، ص7.

[5] فؤاد، عباس وآخرون: معجم الأمثال الشعبية الفلسطينية. ط16، عمان: دار الجليل للنشر، 1989، ص16.

ومن خلال استعراض الأمثال الشعبية الفلسطينية لاحظت الباحثة قلة حضور المعتقدات الشعبية الفلسطينية الخاصة بعيون الماء، أو حتى يمكن القول ندرتها، وإنما جرى الحديث فيها عن الماء بشكل عام، كما لاحظت التداخل بين مسميات مصادر الماء في المثل الشعبي، دون التفريق بين البحر والنهر والعين والوادي والبئر، فجميعها تحمل الدلالات ذاتها.

وأولى هذه الدلالات الربط بين ماء العين والمرأة، على نحو المثل الشعبي: "إذا الميه بتروب..... بالتوب"[1]، وقد مر معنا في الفصل الأول أن بعض المعتقدات الشعبية الفلسطينية حول عيون الماء ربطت بين المرأة وعيون الماء، ودل هذا الربط على الخصب، وهذا يعود إلى الميثولوجيا القديمة التي قدمت إله الخصب والحياة في صورة امرأة، إذ حلت حل الخصب، وإذا رحلت حل القحط والجدب.

كما ربط المثل الشعبي بين عين الماء والحيوان، وقد مر معنا أن من رموز الآلهة في الحضارات القديمة حيوانات، ودلت المعتقدات الشعبية الفلسطينية على الربط بين الحيوان وعين الماء كما مر معنا في الفصل الأول، وكما تبين في نصوص بعض الحكايات الشعبية الفلسطينية، والأمر ذاته نجده في المثل، على نحو القول: "العنز الجربة ما بتشرب إلا من راس العين"[2].

واستمراراً لدلالة الخصب في عيون الماء، فإن المثل عبر هذه الدلالة من خلال التعريض والكناية، على نحو المثل الشعبي: "السما تنزل إله والأرض تنبعله"[3]، ففي المثل كناية عن وفرة الخير والخصب، وفي المثل الشعبي: "المي والأرض الخضرا خير"[4]، اجتمعت الخضرة والأرض والماء، وجميعها من مسؤولية آلهة الخصب في الحضارات القديمة، كعشتار وبعل، وإن اختلفت مسمياتها من حضارة إلى أخرى.

---

[1] لوباني، حسين: معجم الأمثال الفلسطينية. ط1، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1999، ص49.

[2] جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني. ص46.

[3] لوباني، حسين: معجم الأمثال الفلسطينية. ص425.

[4] جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني. ص71.

وفي المقابل فإن غياب الماء يعني القحط والجدب، وهو ما نجده في رحلة آلهة الخصب ودورتها بين العالم العلوي والعالم السفلي، ففي الفترة التي تكون فيها في العالم السفلي يحل القحط على وجه الأرض، وتعود الحياة والخصب بعودتها، وهذا يعني الاستقرار والأمن، فيقال في المثل الشعبي: "لولا الميه والريح لنتن كل مليح"[1]، ويقال: "عادت المياه لمجاريها".

لذلك ساد معتقد في الثقافة الشعبية الفلسطينية أن زيارة مياه الينابيع والأنهار يجلب الحظ والسعادة والاستقرار، فحرصت المرأة الفلسطينية على ممارسة الطقوس في موسم النبي روبين قرب نهر روبين في فلسطين، وجرى على لسانها المثل: "يا بطلقني يا بتروبني"[2]، لحث زوجها على المشاركة في هذا الموسم.

وهذا بدوره يقودنا إلى اعتقاد الفلسطيني الشعبي بفاعلية ماء العيون، وبقدرتها على جلب السعادة والاستقرار، لاعتقاده أن أرواحا خيرة تسكن العيون، وقادرة على تحقيق النفع للإنسان، وقد تجلى هذا الاعتقاد في المثل: "يا بحر خذ ابنك وهات ابني"، يقول لوباني في شرح المثل:" من التراث الميثولوجي الفلسطيني، تخاطب إحداهن البحر، بأن يأخذ الروح الشريرة من ابنها، ليعيد لها ابنها صحيحا"[3].

وكما أن هناك أرواحا خيرة تسيطر على ماء العيون، فإن هناك أرواحا شريرة توقع الأذى بالإنسان، في المعتقد الشعبي، ومن هنا جمع المثل بين المتضادين في القول: "تحت النهر الهادي وادي"[4]، وفي القول: "الميه الهادية خاف منها"[5]، وعبر عن قدرة هذه الأرواح، حتى أنه لا يمكن رد غضبها، في

---

[1] جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني. ص326.

[2] لوباني، حسين: معجم الأمثال الفلسطينية. ص872.

[3] لوباني، حسين: نفسه. ص872.

[4] لوباني، حسين: نفسه. ص257.

[5] جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني. ص113.

القول: "السيل ما بنرد"[1]، لذلك حرص الفلسطيني الشعبي على ممارسة بعض الطقوس التي تضمن دفع أذى هذه الأرواح، وعدم غضبها.

وما الأرواح الخيرة والشريرة إلا تطور للاعتقاد بوجود آلهة الخصب والحياة وآلهة القحط والموت، فكما كانت عشتار في أحد وجوهها آلهة للخصب والحياة، وفي الوجه الآخر آلهة للقحط والموت، فإن ماء العيون يحمل هذه الثنائية المتقابلة، فكما دل على الخصب والحياة، فإنه يحمل معاني الموت، نحو القول: "البحر ما بقذف إلا الميت"[2].

رابعا: الأسطورة

إن أشكال الموروث الشعبي الفلسطيني، لا سيما القولية منها، غنية بالرموز والدلالات المعبرة عن الأمة، وعن هويتها المتصلة بالإرث الحضاري الأصيل، وبثقافة المجتمع وقيمه ومعتقدات، لذلك وصف كناعنة هذه الرموز بأنها:" وليدة الشعب نفسه، صادقة في التعبير عن آلامه وآماله، تنتمي إليه انتماء جوهر لا انتماء زمن، ضاربة في الأعماق، عابرة للزمان والمكان، تحمل في جنباتها عاداته وتقاليده وقيمه ومآثره، تلهب عواطف الناس، وتثير هممهم"[3].

وتتصل الأساطير اتصالا مباشرا بالمعتقدات الدينيَّة القديمة، ومن هنا فإن "فهم آلية الأساطير ضروريٌّ جدًا لفهم آلية تكوين الخيالات والأوهام اللاشعورية، كي تتَّضح العلاقة بين رموز الأسطورة"[4].

ومن هنا فإن الأساطير المتوراثة، في الفنون والممارسات والمعتقدات الشعبية، تعمق الإحساس بالواقع، وتعطيه بعدا جماليا ومعرفيا جديدا، يضاف إلى بعده المعبر عن أفكار الشعب وهويته[5].

---

[1] لوباني، حسين: معجم الأمثال الفلسطينية. ص431.

[2] جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني. ص107.

[3] كناعنه، شريف: من نسي قديمه تاه. ط1، عكا: مؤسسة الأسوار، 2000، ص66

[4] زكي، أحمد: الأساطير: دراسة حضارية. ط2، بيروت: دار العودة، (د.ت)، ص179.

[5] ينظر: قلعة جي، عبد الفتاح: رموز وأساطير في الموروثات الشعبية. مجلة التراث العربي، المجلد(17)، العدد(68)، 1997، ص60.

والحكاية الشعبية أكثر الفنون الشعبية القولية تمثيلا للأسطورة، وأبعد من ذلك، فإن من أنـــواع الحكايـــة الشعبية الحكاية الأسطورية، وهي: "الحكاية التي تدور حول الآلهة، والأحداث الخارقة، وتشرح بمنطق العقل البدائي ظواهر الكون والطبيعة، والعادات الاجتماعية[1].

وهي ما يطلق عليها بعض الباحثين مصطلح الحكاية الخرافية، وتوصف بأنها بقايا أساطير موغلة فـــي القدم، وهي الابنة الشرعية للأسطورة، وغالبا ما يتجسد البعد الأسطوري فيها في شخصية البطل، مـــن خلال الخوارق التي يمتلكها، ويميزه عن البشر، فيجمع في أفعاله وتصـــرفاته بـــين صـــفات الإنســـان وصفات الإله[2].

ويرى بعض الباحثين أن الأساطير هي الأصل الذي انبثقت عنه الحكايات الخرافية، وتظهر هذه العلاقة جلية من خلال المقارنة بين صفات البطل الأسطوري وقدراته الخارقة، وبين صفات البطل في الحكاية الشعبية الخرافية وقدراته، فكلاهما يتلقى المساعدة من قوى غيبية، وكلاهما قادر على تحقيق النفـــع أو إلحاق الأذى بالبشر، وكلاهما قادر على التحول في صور إنسانية وحيوانية ونباتية[3].

على نحو ما نجده في حكاية (الغزالة)، فقد تحولت الفتاة فيها قرب عين الماء إلى غزالة، وأخرى إلـــى غولة، الأولى رمز أسطوري يدل على الخصب والحياة، والثانية رمز أسطوري يدل على الموت.

أما الغزالة فهي في الفكر الأسطوري رمز من رموز الشمس، الدالة على الخصب والحياة والتجدد، فقد توحد الإله بعل في الحضارة الكنعانية مع حرارة الشمس، لعلاقة كـــل منهمـــا بالنبـــات والخصـــب[4]، وتصور الرسوم الأكادية إله الخصب يصعد من بين كتفيه خيوطا ترمز إلى الإشعاع الشمسي[5].

---

[1] نمر، عبد الرحمن: الحكاية الشعبية: منصور بن ناصر. ص44.

[2] ينظر: أبو خاطر، مسلم: الشخصية في الحكاية الشعبية الفلسطينية. رسالة ماجستير، جامعة الأقصى، غزة، 2017، ص121.

[3] ينظر: محمد، إيمان: البطل في الحكاية الشعبية الفلسطينية. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2012، ص199.

[4] ينظر: الخطيب، محمد: الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية. دمشق: دار علاء الدين للنشر، 2004، ص34.

[5] ينظر: مورتكات، أنطوان: تاريخ الشرق القديم. تعريب: توفيق سليمان وآخرون، (د.ن)، (د.ت)، ص95.

وفي الجاهلية فإن الغزالة من أسماء الشمس، لأنها تمد حبالها كأنها تغزل، وكان بعض العرب، إذا وجدوا غزالا ميتا، كفنوه، ودفنوه، وبكوا عليه[1].

وفي أغاني الأطفال في الأغنية الشعبية الفلسطينية، عندما يقلع الطفل سنه، يرميه جهة الشمس، قائلا:

يا شمس يا شموسة

خذي سن الحمار

وأعطيني سن الغزل

وتتلاقى الفتاة والغزالة وعين الماء في حكاية (الغزالة) في دلالة الخصب والتجدد، فجميعها من رموز عشتار إلهة الخصب في الفكر الأسطوري، كما تتلاقى الغولة والفتاة وعين الماء في دلالات الموت والقحط، فجميعها من رموز عشتار في وجهها الأسود، " فكما كانت عشتار ربة الحياة والخصب والحب، فإنها ربة الموت والحرب والهلاك، ومن صورها في وجهها الأسود: الساحرة العجوز، خاطفة الأطفال، الغولة، مصاصة الدماء[2].

وفي حكاية (منصور بن ناصر)[3]، توشك البطلة نجم على الموت، غير أنّ الطبيب (حكمون) استطاع أن يعيدها للحياة بعد أن أسقاها ماء الحياة، وقد أحضره من عين قريبة من القرية.

إن ما فعله حكمون في علاج الفتاة نجم، باستخدام ماء العين فعله قبله جلجامش، وهو يبحث عن سر الخلود بعد موت صديقه في الملحمة البابلية الخالدة، فقد حصل على ماء الخلود من عين ماء، وكلا الفعلين يؤكد على الاعتقاد بقدرة الماء السحرية على منح الحياة.

---

[1] ينظر: خان، محمد: الأساطير العربية قبل الإسلام. ص65.

[2] ينظر: الديك، إحسان: صدى عشتار في الشعر الجاهلي. مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد(15)، 2001، ص142.

[3] ينظر: نمر، عبد الرحمن: الحكاية الشعبية: منصور بن ناصر. ص88.

وفي حكاية (وفاء أفعى)[1]، اعتقدت الأفعى أن الراعي الذي يسكن معها في المغارة هو الذي قتل صغارها، فأرادت أن تتخلص منه بوضع السم في عين الماء التي يشرب منها، ولكن عندما علمت حقيقة الأمر، بأن الراعي حافظ على صغارها من الأذى في غياب الأفعى، قررت أن تسحب السم من الماء وتنقذه من الموت.

وهذا يقودنا إلى أسطورة جلجامش وقد سرقت الأفعى منه ماء الخلود، أو نبتة الخلود في رواية أخرى، عندما جلس يستريح بالقرب من عين ماء، ومن يومها سميت الأفعى بالحية، دلالة على خلودها:

فخرجت من الماء واختطفت النبتة

وبينما كانت عائدة غيرت جلدها

وهنا جلس جلجامش وبكى[2]

ولعل الربط بين النبع أو البئر ودلالات الخصب هو موروث أسطوري قديم، يعود إلى اعتقاد الحضارات القديمة بفاعلية الطقوس الأسطورية التي تضمن عودة إله الخصب، كعودة الإله بعل، وعودة عشتار، وتكون عودتهما من خلال الينابيع أو الآبار العميقة التي تشكل بوابة العالم السفلي، مثل هذا الانتظار للخصب والتفاؤل به نجده في الأغنية الشعبية الخاصة بموسم الحصاد:

يا زرع قطفتو من شطك يا واد يا فلان ندهتو من بين الأجواد

يا زرع قطفتو من شطك يا بير يا فلان ندهتو من عند الوزير[3]

وتكتمل معاني الخصب ورموزه المتوارثة من الفكر الأسطوري حول عيون الماء بحضور المرأة(عشتار)، وعودتها إلى الحياة من العالم السفلي عالم الأموات، فبحسب المعتقد الأسطوري تعود آلهة الخصب في رحلتها من العالم السفلي عبر عيون الماء الواصلة إلى سطح الأرض، وبعودتها تعود

---

[1] ينظر: زيادنة، صالح: حكايات من الصحراء. ط1، رهط: بلدية رهط، 2003، ص140.

[2] عزيز، كارم: أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم. ص151.

[3] البرغوثي، عبد الطيف: الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن. ص76.

الحياة والسعادة والبهجة، وقد مثلت الأغنية الشعبية الفلسطينية هذه المعاني الأسطورية أجمل تمثيل في النص الآتي:

محلا فراح قريتنا والزقفة صف والصبايا بتغني وترقص ع الدف
والشباب بالدبكة بتضرب بالكف والحادي يعلي صوته والزفة نار
نبع الوادي يا محلا صوت الحسون ريح الوادي بداعب شجر الطيون
وتينتنا يا محلاها وميه لعيون يا محلا صوت البلبل وديك الشنار[1]

وقد تكون الحياة والخصب والشفاء نتيجة حيوان يخرج من عين الماء، ويقدم المساعدة لمن يحتاجها، على نحو ما نجده في حكاية (مقطعة الديات)، فقد قطع الأخ يدي أخته ورجليها، وألقى بها في البرية، فزحفت إلى عين ماء، وهناك تلقت المساعدة من يد أفعى خرجت من الماء، بأن عاد لها يداها ورجلاها عندما قامت الأفعى بالمسح على جسدها[2].

وقد يكون للحيوان المائي تأثير معنوي، على نحو ما نجده في حكاية (السمكة العجيبة)، التي اصطادها الصياد من نهر قريب من قريته، وقد تمكنت هذه السمكة من الكشف عن خيانة الزوجة لزوجها، بأن رشت الماء على الزوجة فكشفت خيانتها[3].

والأمر نفسه فعلته الأسماك مع فتاة اسمها عقلة الإصبع في حكاية (عقلة الإصبع)، فقد أخذتها فراشة لكي تزوجها إلى ابنها، ووضعتها على ورقة شجرة، وسبحت بها عبر ماء النهر، بعيدا عن منزلها، وعندما استيقظت "عقلة الاصبع" وجدت نفسها على ورقة شجرة في ماء النهر، وسمعت الضفدعة وابنها يتحدثون عن زواجها، فبدأت عقلة الاصبع بالبكاء، فوجدتها مجموعة من الأسماك، وعندما

---

[1] جاد الله، خليفة: الأدب الشعبي في فلسطين: أغاني النساء أنموذجا. ص27.

[2] موسى، أحمد: تراث الموسيقا الشعبية الفلسطينية – خصائصه ومقوماته وطرق الحفاظ عليه. ص108.

[3] ينظر: الغول، فايز: أساطير من بلادي. ط2، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، 1966، ص22.

سمعوا قصتها، قرروا مساعدتها، وعندما كانت الضفدعة وابنها يجهزان لحفل الزفاف، قامت مجموعة الأسماك بتهريبها بعيدا[1].

والسمكة في الفكر الأسطوري طوطم حيواني لعشتار، إله الخصب في الحضارة البابلية، وهي نفسها في الحضارة السومرية، التي عرفت بالإله نانشة، أو ابنة انكي، إلهة الأسماك، وإلهة العدالة والأخلاق والفضائل[2].

وكما أن عيون الماء وأماكن تواجدها في الأودية دالة على الخصب، فإنها أيضا دالة على القوة، وقد مر معنا الاعتقاد الشعبي بأن عيون الماء يسكنها الآلهة، والآلهة منها ما هو للخصب ومنها ما هو للحرب، وقد استحضرت الأغنية الشعبية الفلسطينية هذه الرمزية لأماكن تواجد آلهة الحرب، ودللت من خلالها على قوة الفلسطيني في محاربة الأعداء:

وطلـــــــــــت خيلينـــــــــــا مـــــــــــن وادي عـــــــــــارا
عوايـــــــــــد رجالنـــــــــــا تقـــــــــــود الإمـــــــــــارة
وطلـــــــــــت خيلنـــــــــــا مـــــــــــن قـــــــــــاع الـــــــــــوادي
عوايـــــــــــد رجالنـــــــــــا تكيـــــــــــد الأعـــــــــــادي[3]

كما كشفت الأغنية الشعبية تشاؤم الفلسطيني من البئر، وهو صورة من صور عيون الماء في المؤثرات القولية، جاء في البكائية:

يمـــــه حلمـــــت فـــــي الليـــــل حلـــــم يـــــــــــــــلّ جننـــــــــــــــي
يمـــــــه وقعـــــــت فـــــــي البيـــــــر قـــــــاع البيـــــــر خممنـــــــي[4]

---

[1] ينظر: الغول، فايز: أساطير من بلادي. ص96.

[2] ينظر: الماجدي، خزعل: الدين السومري. ط1، عمان: دار الشروق، 1998، ص100.

[3] كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص218.

[4] عودة، عمر: البكائيات الشعبية الفلسطينة. ص219.

فقد اعتقد الإنسان القديم بالعالم السفلي، عالم الأموات، ولا يمكن الوصول إلى هذا العالم إلا من خـــلال ثقب في الأرض، كالعيون والآبار العميقة، فمن خلال هذا الثقب أو الممر أراد جلجامش مخاطبـــة روح صديقه أنكيدو، بمساعدة الإله(أيا):

افتح الآن ثقبا في العالم السفلي

تسلل منه روح أنكيدو من العالم السفلي[1]

وهذا ما دفع إلى الاعتقاد بوجود أرواح تسيطر على عين الماء، كما دفع إلى الاعتقاد بعلاقة عين الماء بالموت، في مقابل علاقتها بالحياة، حالها كحال عشتار في وجهيها الأبيض والأسود.

وهذا يعلل تشاؤم الفلسطيني في ثقافته الشعبية من الوقوع في البئر أو عين ماء في الحلم، ويفسره بـــدنو الموت منه أو الغياب، ذلك أن البئر أو عين الماء في الفكر الأسطوري بوابـــة للعـــالم الســـفلي، عـــالم الأموات، وثمة معتقد لدى أهل القدس بأن في جبل صهيون بئرا يسمع منها النـــاس أصـــوات الأرواح، ويستدلون من خلالها على تعذيب هذه الأرواح[2].

---

[1] السواح، فراس: جلجامش: ملحمة الرافدين الخالدة. ص99.

[2] ينظر: الباش والسهيلي: المعتقدات الشعبية في التراث العربي. ص151.

الفصل الرابع

أبعاد صورة عيون الماء ودلالتها في التراث الشعبي الفلسطيني

من خلال تتبع حضور عيون الماء في نماذج الأدب الشعبي: الحكاية الشعبية، والأغنية الشعبية والمثل، فقد لاحظت الباحثة أن هذا الحضور يحمل في دلالاته أبعادا نفسية واجتماعية ودينية وأسطورية، يمكن الوقوف عليها لفهم صورة عيون الماء في التراث الشعبي الفلسطيني، وعلاقتها بالفرد والمجتمع، وما يسود فيه من أفكار ومعتقدات وعلاقات، ذات أبعاد مختلفة.

البعد النفسي

يتمثل هذا البعد في ألوان الأدب الشعبي في تعبير الجماعة عن حالاتها النفسية والعاطفية، بشكل سار مفرح في الأحداث السارة، وبشكل حزين كئيب في الأحداث الحزينة[1].

ويتصل هذا البعد بالتفسير النفسي للأدب الذي أشار إليه عز الدين اسماعيل في تناوله للمنهج النفسي في تحليل النصوص الأدبية، فالعلاقة بين الأدب والنفس علاقة وثيقة، فكلاهما مكمل ومؤثر في الآخر، ففي الوقت الذي تجمع فيه النفس أطراف الحياة لصناعة الأدب، فإن الأدب يضيء جوانب الحياة المختلفة بأسلوب مقنع ومؤثر في المتلقي[2].

وقد أشارت كثير من التعريفات التي تناولت الأدب الشعبي إلى وظيفة الأدب الشعبي النفسية، فهو عند كناعنة: "نتاج عفوي جماعي، يعبر عن شعور أبناء الشعب، وعواطفهم، وحاجاتهم، وضمائرهم بشكل عام، ينتقل من جيل إلى جيل عبر المشافهة"[3].

ويتصل البعد النفسي لصورة عيون الماء ودلالتها في التراث الشعبي الفلسطيني باللاشعور الجمعي للأمة الصادر عنها هذا الموروث، فكما أن الأدب، بحسب المنهج النفسي، يعبر عن دواخل الأديب،

---

[1] ينظر: نمر، عمر: الحكاية الشعبية: منصور بن ناصر. ص31.

[2] ينظر: إسماعيل، عز الدين: التفسير النفسي للأدب. ط4، بيروت: دار الثقافة، 1981، ص13.

[3] كناعنة، شريف: دور التراث الشعبي في تعزيز الهوية. ص22.

ومكوناته الوجدانية، فإن الموروث الشعبي، بأشكاله المختلفة، القولية والمادية، يعبر عن وجدان الأمة الصادر عنها، ومن خلاله تتجلى أبعاده النفسية، ذلك أن الموروث شكل من أشكال الإبداع الذي يتأثر إلى حد كبير بمشاعر المبدع وحالته النفسية، فيغدو الموروث الشعبي، كما هو الأدب، مرآة لما يدور في وعي الأمة ولا وعيها حينما ابتدعت هذا الموروث، أو تبنته[1].

وعند الحديث عن المعتقدات الشعبية، بشكل عام، فإن للبعد النفسي فيها أثرا واضحا، ذلك أن الاعتقاد بهذه المعتقدات في مختلف جوانب الحياة ينطلق من مشاعر الخوف والتشاؤم، أو من مشاعر الفرح والتفاؤل، وهي من أهم مكونات الحالة النفسية، وتزداد قيمة البعد النفسي ودلالته في المعتقدات المتصلة بالقوى الغيبية، لما لها من تأثير على الحالة النفسية للشعوب، كانت وما زالت مصدر قلق للإنسان الشعبي، يخاف من سخطها، ويمارس الشعائر لنيل رضاها[2].

وعيون الماء جزء من البيئة الشعبية، لجأ إليها الإنسان، لأنه وجد فيها ملاذا لنفسه المتعبة، المثقلة بهموم الحياة وضجيجها، وبجوارها يستمتع بمناظر الخضرة الساحرة، وتتحلى مشاعره بالهدوء والراحة والسكينة قرب ماء العين، وقد وجد الروائي الفلسطيني هذه الدلالات النفسية في البيئة المائية ومصادرها، فوظفها في نصوصه الروائية، لتمنح النص بعدا نفسيا، ينعكس على المتلقي، وإلى هذا الرأي ذهب الباحث حمدان في حديثه عن بيئة القرية في الرواية الفلسطينية، وادي العزيزة في بيت حنون تحديدا، يقول: "وفي أحد المشاهد الوصفية يتجلى انعكاس المعطيات المكانية في الإنسان الفلسطيني، فحين تتدفق المياه إلى الوادي، فإنها تبعث في النفوس الشعور بالفرح، فترقص القلوب طربا على كرم الطبيعة، وهي تعزف بأنفاسها لحن الحياة"[3].

---

[1] ينظر: قطوس، بسام: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر. ط1، الاسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2006، ص50.

[2] ينظر: أبو سلطان، أسامة وكلاب، محمد: استدعاء الفولكلور في الشعر الفلسطيني المعاصر: المعتقدات الشعبية أنموذجا. ص60.

[3] حمدان، عبد الرحيم: جماليات القرية في الرواية الفلسطينية: قرية بيت حنون أنموذجا. مجلة كلية فلسطين التقنية للأبحاث، العدد(1)، 2014، ص7.

وقد لاحظت الباحثة أن الحكاية الشعبية الفلسطينية أكثر الفنون الشعبية توظيفا لعيون الماء، وهي كذلك أقرب الفنون الشعبية في التعبير النفسي، فالحكاية الشعبية تعتمد في الدرجة الأولى على المنهج النفسي كي تُحلل، وتتخذ التحليل النفسي في دراسة مكوناتها وأبعادها النفسية، لما يتوفر فيها من سمات، فهي قادرة على إظهار كل المشاعر، والكشف عن المكبوتات المتواجدة في النفس البشرية، وهي المتنفس للضغوطات النفسية، وهي الأقدر على البوح لما يدور في خلجات النفس[1].

فقد وجد الإنسان الشعبي البسيط في الحكاية الشعبية متنفسا، يخلق فيها عالمه المثالي المتخيل، في الوقت الذي لا يقدر على تحقيقه في العالم الحقيقي، ومن خلال الحكاية الشعبية فإنه يتمرد على كل المعيقات التي تحد من تحقيق ذاته، لأن الحكاية من خلال عالمها المتخيل تسعى إلى تلبية الاحتياجات النفسية للفرد، والتنفيس عن مكبوتاته، خاصة الجنسية، لتعارضها مع قيم المجتمع الذي ينتمي إليه، وما الأدوار التي يقوم بها شخوص الحكاية إلا أدوار هي في الحقيقة نابعة من رغبات مكبوتة، وحاجات دفينة[2].

لقد وجد الفلسطيني الشعبي في عيون الماء الراحة والهدوء والأمان، وأيقن أنها المكان المناسب للتعبير عن مشاعره تجاه المحبوبة، لذلك فإن عين الماء في معظم الحكايات الشعبية هو المكان المناسب للقاء الأحبة، على نحو حكاية (تفاح الحبل)[3]، إذ يرى البطل وجه فتاة جميلة كلما نظر إلى الماء داخل العين، فوقع في حبها، وأخذ يبحث في الغابة عن صاحبة هذا الوجه، وذات يوم اقتربت غزالة من العين، فتحولت إلى فتاة جميلة، فاكتشف البطل أنها صاحبة الوجه الجميل الذي رآه في العين، واقترب منها وعرض عليها الزواج، وكان له ما يريد.

---

[1] ينظر: خموم، صفاء ولوز، وسام: البعد النفسي في الحكاية الشعبية: نماذج مختارة من الوطن العربي. رسالة ماجستير، جامعة العربي، الجزائر، 2017، ص85.

[2] ينظر: برباش، مريم: الحكاية الشعبية في منطقة المسلية. رسالة ماجستير، جامعة المسيلة، الجزائر، 2012 ص113.

[3] الحاجة لطيفة، العمر(73) سنة، من سكان قرية عسلة في محافظة قلقيلية.

كما وجد في عيون الماء الحياة، فهي التي أنقذت الطفلين اليتيمين، في حكاية (بقرة اليتامى)[1]، من الموت لشدة العطش، بعد أن تخلصت منهم زوجة أبيهما، وألقت بهما في الغابة.

ووفرت عيون الماء حالة من التفاؤل والأمان وطرد الخوف من نفس جبينة، بعد أن فقدت الخرزة الزرقاء التي توصلها بأمها، فلجأت إلى الماء الجاري:

يا طيور طايرة يا ميّة يا سايرة

سلمي ع أمي وبوي وقوليلهم اجبينه راعية

ترعى غنم، ترعى بقر وتقيل تحت الداليّة[2]

وما الأمن النفسي الذي شعرت به جبينة بجوار عيون الماء إلا تعبير عن حالة الاستقرار النفسي الذي يجده الوعي الجمعي الفلسطيني في عيون الماء.

وتؤدي الأغنية الشعبية الوظيفة النفسية، من خلال ترجمة أحاسيس الأمة الصادرة عنها، بما في تلك الأحاسيس من سرور وغضب، وتفاؤل وتشاؤم، وحب وكراهية، في مختلف المناسبات والأحداث والمواقف، كما أُستخدمت للتعبير المناسب عن الذات، وصياغة الأفكار والعواطف، في شكل بسيط، يسهل حفظه واستعادته في أوقات تمد ملقيها بالأمل وحب الحياة، وتزيل عنه همومه، وتجدد نشاطه، وبذلك فإن الأغنية الشعبية تشتمل على مخزون نفسي كبير[3].

فحينما يلجأ زريف الطول إلى عين الماء في قوله:

يا زاريف الطول ورايح على العين ملي الجرة والصابيا على الصفين[4]

---

[1] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص72.

[2] ينظر: نمر، عبد الرحمن: الحكاية الشعبية: منصور بن ناصر. ص44.

[3] ينظر: غوانمة، محمد: أغاني النساء في الأردن. المجلة الأردنية للفنون، المجلد(2)، العدد(1)، 2009، ص5

[4] علقم، نبيل: مدخل لدراسة الفولكلور. ص56.

فإنه يبحث عن الأجواء النفسية الهادئة التي توفر له فرصة التعبير عن حبه، وتحفزه على البوح عن مشاعره، يلجأ إلى عيون الماء باحثا عما لا يجده في حياته اليومية، وليشبع رغباته المكبوتة، ويستمتع بمناظر الطبيعة الخلابة.

ونظرا لدور الأغنية الشعبية في التعبير عن المشاعر الاجتماعية للأفراد، وعن الوجدان الشعبي لهم، فإنها تعد معيارا صادقا وموضوعيا للتعرف على ذوق الأمة، وملامح حضارتها، وهي بذلك تجمع بين تصوير الفكر والوجدان معا[1].

فوجدان الفلسطيني يجد في عيون الماء الاستقرار النفسي الذي ينشده، ويجد فيها رمز العودة والتلاحم بين أبناء الشعب، فقد كانت عيون الماء على مر العصور سببا من أسباب الاستقرار وبناء المجتمعات، وقد وجد موسى حافظ هذا البعد النفسي في عيون الماء، فعبر عنه بقوله:

حِبابي ارجَعوا لِلصوب وِالَيَم لَصوب النَبِع والبُستان وِالَيَم

تايرجع ابِن أَحمد وِابِن وِلِيم يغنوا لِلوَطَن أَجمَل عِتاب[2]

وقد طور الفلسطيني بحكم كونه تحت الاحتلال، واكتوائه بنار الغربة والتشرد، معاني الاستقرار والأمن بجوار عيون الماء إلى معاني الصمود أمام سياسات الاحتلال الهادفة إلى تجريد الفلسطيني من أرضه، وسلب عيون الماء منه، لذلك يؤكد على هذه المعاني من خلال التعبير عن حالته النفسية بالقرب من عيون الماء:

لأنصب خيمة عل المية وارحل ما فيش لو بعنا ميرميا وزعتر بنعيش[3]

ووجد في عيون الماء، ومن خلال الأغنية الشعبية، وسيلة صادقة للتعبير عن مشاعر الشوق والحنين، في وجدان الفلسطيني المغترب عن أرضه ووطنه، ومثل ذلك الأغنية الشعبية:

---

[1] ينظر: نطور، عبد القادر: الأغنية الشعبية في الجزائر: منطقة الشرق الجزائري نموذجا. رسالة دكتوراة، جامعة منتوري، الجزائر، 2009، ص19.

[2] حافظ، موسى: فنون الزجل الشعبي الفلسطيني. ص22.

[3] جاد الله، خليفة: الأدب الشعبي في فلسطين: أغاني النساء أنموذجا. ص26.

مـــا حـــلا الـــدار والـــديرة ونبـــع الفـــوار والزينـــــات ع النبعـــــة يعبـــين جـــــرار

هـــب الشـــوق شـــوقني بالغربـــة تعـــود شـــو مشـــتاق يروينـــي ابريـــق الفخـــار[1]

ويزداد تأثير البعد النفسي للموروث الشعبي على الأطفال، فقد تطرق البـــاحثون إلـــى دور المـــوروث الشعبي، لا سيما أغاني الأطفال والحكاية الشعبية، في التعبير عن مشاعر الطفولة، وحاجاتهم النفســـية، "فالأدب الطفولي الجيد هو الأدب الذي يلامس حاجات الأطفال ورغباتهم، بشكل ينعكس إيجابـــا علـــى حالتهم النفسية"[2].

وقد وعى موسى حافظ لحاجات الأطفال النفسية، ودور عيون الماء في تلبيتها، حيـــث المتعـــة واللهـــو والاستمتاع، يقول:

قَلَتلي يَا بِنيه وَانا صَبيه

كُنّا ناس نِحيا فَلاحينا

وكِنّا نِلبَس ثياب الغِية

ونِنزل عَ النَّبعَة وارِدينا[3]

وللمثل الشعبي أيضا دور كبير في تصوير البعد النفسي للأفراد، فعندما يتعرض الإنســـان فـــي حياتـــه لصدمات أليمة، ومواقف ضاغطة، فإنه يجد نفسه محبطا ويائسا من الحياة، أو فاقـــدا للأمـــل، والمثـــل الشعبي من خلال ذلك يساعده على إيجاد الحلول وتهدئته والتخفيف عنه، عندما يقارن حالته بما تضمنه المثل المستحضر، "فالأمثال الشعبية بالنسبة لنا عالم هادئ نركن إليه حينما نـــود أن نتجنـــب التفكيـــر الطويل في نتائج تجربنا"[4].

---

[1] جاد الله، خليفة: الأدب الشعبي في فلسطين: أغاني النساء أنموذجا. ص26.

[2] ينظر: البدوي، مرزوق: أناشيد الأطفال في الشعر الفلسطيني من سنة 1920_1948. رسالة ماجستير، جامعة النجـــاح الوطنيـــة، نابلس، 2004، ص17.

[3] القاسم، نبيه: الحركة الشعرية الفلسطينية في بلادنا. ص207.

[4] عابي، غنية: الدلالات الاجتماعية في الأمثال الشعبية: منطقة أولاد عدي لقبالة أنموذجا. رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضـــياف، المسلية، الجزائر، 2016، ص26.

وقد عدّ السناد المثل الشعبي من أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في الكشف عن الحالة النفسية للشعوب، فمن خلالها نتعرف إلى نفسية الشعوب، وما يعتري نفوس الأفراد من مخلفات الماضي، وشوائب الحاضر، وتطلعات المستقبل، وهي صورة صادقة لتطوره الفكري والأخلاقي والحضاري[1].

إن معاني الخصب والاستقرار المتواجدة بالقرب من عيون الماء وفرت حالة من الاستقرار النفسي لدى الفلسطيني، وكما عبرت الحكاية الشعبية والأغنية الشعبية عن هذا البعد النفسي لصورة عيون الماء، فإن المثل الشعبي تضمن الدلالة ذاتها، ومنه المثل الشعبي: "السما تنزل اله والأرض تنبعله"[2].

فقد جمع المثل الشعبي بين ماء السماء وما الينابيع، دلالة على وفرة الخصب، ونسب هذا الخصب لسعيد الحظ، الذي ينعم في الكثير من الخيرات، ومن الطبيعي أن التنعم هذا يوفر له حالة من الراحة والاستقرار النفسي.

وكما عبر المثل الشعبي عن الحالة النفسية المستقرة المطمئنة للناس بالقرب من عيون الماء، فقد عبر أيضا عن خوف الناس منها، في المثل الشعبي: "الميّه الهادية خاف منها"[3]، وهذا الخوف مرده إلى اعتقاد الفلسطيني بسيطرة الأرواح على العين، ومن هذه الأرواح أرواح شريرة توقع الأذى بالناس.

البعد الاجتماعي

الإنسان اجتماعي بالطبع، فلا يستطيع أحد أن يعيش منعزلا عن الآخرين، فإن الإنسان في المجتمع الفلسطيني مثلاً ينتمي لأسرة، أو حامولة، أو ينتمي لقريته، وقد يتحول هذا الانتماء إلى نوع من العصبية أحياناً، وأن هذا الانتماء، وهذه العصبية، قد انعكسا بأصدق الصور في الأدب الشعبي، كما أن حياة الإنسان حصيلة من القيم والمعارف الثقافية، ولقد لجأ الإنسان إلى أساليب وطرق مختلفة لنشر هذه

---

[1] ينظر: السناد، جلال: المثل الشعبي ودلالته الاجتماعية. ص8.

[2] لوباني، حسين: معجم الأمثال الفلسطينية. ص425.

[3] جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني. ص113.

المعارف منها: الأدب الشعبي، ولم يقتصر دور الأدب الشعبي في ترسيخ القيم والعادات ونشرها فحسب، بل ساهم أيضاً في نقد السلبي منها، ونبذه[1].

ويعبر الموروث الشعبي عن الواقع المعيش للأمة، فالأغنية الشعبية، على سبيل المثال لا الحصر، ترتبط بعلاقة وطيدة مع الحياة اليومية والاجتماعية للناس، وتتناول مختلف النشاطات اليومية لهم كالعمل والزواج والمناسبات، وهي تعكس الوضع الاجتماعي لحياة الناس[2].

والأغنية الشعبية تقوم بوظائف عديدة، من أهمها الوظيفة الاجتماعية، كونها تعد تعبيرا مباشرا عن الممارسات الحياتية اليومية للأفراد، لذلك لاقت اهتماما من علماء الاجتماع والباحثين في ثقافة الشعوب وطرائق تفكيرهم، كما تجمع الأغنية الشعبية في نصوصها بين القيم المتوارثة، وطريقة معايشة الحاضر، وتطلعات الأمة للمستقبل، وتعبر عن عادات المجتمع وتقاليده، بما تحويه من أفكار ومقولات أخلاقية وروحية ونفسية[3].

وقد كانت عيون الماء إلى عهد قريب، وما زالت في بعض القرى الفلسطينية، المصدر الوحيد للماء في حياته، حتى غدت صورة ورود الفتيات إلى عين الماء صورة مألوفة في ممارسات القرية الفلسطينية، على نحو ما نجده في أغنية جفرا:

جفرا يا هالربع نزلت على العين

جرتها فضة وذهب وحملتها للزين[4]

ويرى بدير أن الأغنية الشعبية غنية بالظواهر الاجتماعية المختلفة المعبرة عن ثقافة الأمة، وتمتاز بأنها هي أصدق من الشعر الفصيح في التعبير عن عادات الشعب، وتقاليده، وطقوسه في المناسبات

---

[1] ينظر: علقم، نبيل: مدخل لدراسة الفولكلور. ص37.

[2] ينظر: غوانمة، محمد: أغاني النساء في الأردن. ص3.

[3] ينظر: نطور، عبد القادر: الأغنية الشعبية في الجزائر: منطقة الشرق الجزائري نموذجا. ص19.

[4] البرغوثي، عبد الطيف: الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن. ص56.

المختلفة؛ لقربها من المجتمع من ناحية، ولارتباطها بالعرف الاجتماعي والتقاليد الأصيلة من ناحية أخرى[1].

ومن هنا خلدت الأغنية الشعبية حياة الإنسان الفلسطيني في جوانبها المختلفة، وجسدت طموحاته وآماله وتصوراته للواقع المحيط به، وعكست عاداته وتقاليده المتوارثة[2].

فمن خلال الأغنية الشعبية نتعرف على طبيعة العلاقات الاجتماعية التي احتفظت بها المخيلة الشعبية بالقرب من عيون الماء، فهي المكان الذي يستعرض فيه الشاب نفسه أمام الفتيات، وقد وردن العين لجلب الماء، وقد تطورت علاقة الحب بينهما بجوار العين، ليكون المكان شاهدا على اللقاء بينهما، ومن ذلك زاريف الطول:

يا زاريف الطول ورايح على العين ملي الجرة والصابيا على الصفين[3]

وتتصل الحكاية الشعبية بالواقع، وتعبر عن مكوناته وثقافته، فتصور العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، وتبرز الصراع الطبقي الاجتماعي لدى الأمم، كما تصور العادات والتقاليد التي يعتقد بها أفراد المجتمع الذي تنتمي إليه الحكاية، ومن خلال الحكاية أيضا يمكن رصد القيم والأخلاق السائدة في الثقافة الشعبية[4].

"ولم يكن بطل الحكاية الشعبية، في أية مرحلة من مراحله التاريخية، بمنأى عن العلاقات الاجتماعية السائدة، التي تأتي انعكاسا للبناء الكلي للمجتمع، وحركة ذلك البناء، وبذلك يمكن النظر إلى مشكلة البطل في الحكاية بوصفها ثمرة للعلاقة المنتجة في المجتمع"[5].

---

[1] ينظر: بدير، حلمي: أثر الأدب الشعبي في الشعر الحديث. الاسكندرية: دار الوفاء، 2002، ص45.

[2] ينظر: الاختيار، نسيب: الفولكلور الغنائي عند العرب. ص9.

[3] ينظر: علقم، نبيل: مدخل لدراسة الفولكلور. ص56.

[4] ينظر: عيفاوي، سليمة: الدلالة الاجتماعية في الحكاية الشعبية بمنطقة القصور. رسالة ماجستير، جامعة المسيلة، الجزائر، 2010، ص167.

[5] محمد، إيمان: البطل في الحكاية الشعبية الفلسطينية. ص227

وكما أن الأغنية الشعبية قدمت عيون الماء كمكان للقاء الأحبة، لما تحمله في الذهن الشعبي من معـــاني الاستقرار والراحة والهدوء، فإن الحكاية الشعبية تضمنت البعد النفسي ذاته، ففي حكايـــة (غزالـــة)[1]، يلاحق الصياد غزالة كلما ذهب إلى الصيد بجوار عين الماء، وعندما لحق بها تحولت إلى فتاة، فأحبهـــا الصياد وتزوجها.

والحكاية الشعبية حافلة بالمصادفات التي يلتقي بها الصياد في الغابة، بالقرب من عيون المـــاء، وهـــذا بدوره يشير إلى شيوع حرفة الصيد في المجتمع الفلسطيني، كما يؤكد على أن معظم الحكايات الشـــعبية تتيح للصياد أن يلتقي بفتاة بالقرب من عين الماء، على نحو ما وجدته الباحثة في حكاية غزالة، والأمر ذاته في حكاية (بنات حبة الرمان)[2]، حيث رأى الصياد أن غزالة خلعـــت جلـــدها الحيـــواني، عنـــدما وصلت إلى عين الماء، وظهرت في صورة فتاة جميلة، أرخت شعرها، واخذت تلهـــو بمـــاء العـــين، فاقترب منها وطلب يدها للزواج، فقبلت.

كما كشفت الحكاية الشعبية في تقديمها لصورة عيون الماء عن المعتقد الشعبي حول قدرة ماء العيـــون السحرية، وما يتبعه من ممارسات شعبية مارسها الناس في المجتمع الفلسطيني لغرض العلاج، إذ تشير حكاية (بليبل الصياح)[3] إلى قدرة ماء العيون والأنهار على الانقاذ من الموت والخلاص، فماء النهـــر في الحكاية هو الذي أنقذ أطفالا صغارا ألقت بهم الخالة في صندوق خشبي.

وكشفت الحكاية الشعبية أيضا عن طبيعة العلاقة بين الأخوة، في عرض صورة عيون الماء، ففي حكاية (ودعة مفرقة سبعة[4] تقف الفتاة ودعة بجوار عين ماء، وعندما علمت ودعة بأنهـــا مفرقـــة أخوتهـــا السبعة، الذين تركوا البيت ونذروا ألا يعودوا إليه إلا إذا جاء لهم أخت مزيونة، أخـــذت علـــى عاتقهـــا البحث عن أخوتها وإعادتهم إلى البيت.

---

[1] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص141.

[2] ينظر: البوجي، محمد: التراث الشعبي والمواجهة. ص279.

[3] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص102.

[4] ينظر: الأشهب، رشدي: كان ما كان: حكايات شعبية من مدينة القدس. ص101.

ومن ذلك أيضا تقديم الصورة المنفرة لزوجة الأب في تعاملها مع أبناء زوجها من امرأة أخرى، فقد لجأ الأيتام في حكاية (بقرة اليتامى)[1] إلى نبع قريب من القرية، بعد أن ألقت بهم زوجة الأب في الغابة، وأنقذتهم القوى المسيطرة على العين، بأن حولت الولد إلى غزال يهتم بأخته.

وفي المقابل فإن أقرب الناس إلى البنت في العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع الفلسطيني هي الأم، لذلك لجأت جبينة في حكاية جبينة[2] إلى الماء لتوصلها بأمها، بعد أن فقدت الاتصال معها عندما أضاعت الخرزة الزرقاء.

وتتميز الأمثال الشعبية عن باقي أشكال الأدب الشعبي بما تحمله في طياتها من دلالات، تعبر عن مختلف مظاهر الحياة العامة السائدة في المجتمع، وتحمل كل تجارب الإنسان وما يتخللها من علاقات، وتلخصها في عبارات موجزة، ويعبر عن انشغالات الناس وهمومهم واهتماماتهم وأحوالهم، والمثل الشعبي يهدف إلى توجيه وضبط سلوك الفرد داخل المجتمع، وفقا للقيم الأخلاقية السائدة، ويشجعه على الفضائل والأخلاق والعادات الحسنة، التي من شأنها الحفاظ على تماسك المجتمع وتعاونه[3].

وبذلك فإن المهمة الرئيسة للمثل الشعبي كما ترى إبراهيم هي نقد الحياة، فإذا كانت الأمثال الشعبية لا تهدف إلى غرض تعليمي، فإنها تهدف من خلال تلخيصها للتجارب الفردية إلى نقد الحياة، وكثيرا ما يشعرنا المثل بنقص في عالم الأخلاق، وليس هذا سوى انعكاس لما يسود عالمنا التجريبي من عيوب أخلاقية[4].

وهو ما يراه نمر أن الوظيفة النقدية التربوية للأدب الشعبي تتمثل بشكل جلي في الأمثال، فأخذت طابع تعليم الفضيلة، والقيم الرفيعة[5].

---

[1] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص72.

[2] ينظر: نمر، عبد الرحمن: الحكاية الشعبية: منصور بن ناصر. ص44.

[3] ينظر: عابي، غنية: الدلالات الاجتماعية في الأمثال الشعبية: منطقة أولاد عدي لقبالة أنموذجا. ص25.

[4] ينظر: إبراهيم، نبيلة: أشكال التعبير الشعبي. ص55.

[5] ينظر: نمر، عمر: الحكاية الشعبية: منصور بن ناصر. ص33

كما يعكس المثل الشعبي المستوى الاجتماعي للمجتمع، من خلال التعرض لبعض المواقف أو التصرفات التي يحاول المثل معالجتها في صيغة أدبية فنية، ومن خلاله يمكن أن نتعرف على الكثير من سمات المجتمع وخصائصه الاجتماعية، فالمثل هو الإطار الذي يحدد مجالات الحياة الإنسانية وقيمتها الأخلاقية، ويحدد ما للإنسان فيها وما عليه، ويعرف الأفراد بالقواعد السلوكية المستحبة التي يجب اتباعها، والنواحي السلبية التي يجب الابتعاد عنها، ويمثل إرثا ثقافيا زاخرا يكشف عن الطابع الثقافي للمجتمع[1].

ومن خلال استعراض الأمثال الشعبية المتضمنة لصورة عيون الماء، فقد لاحظت الباحثة تصويرها لعلاقة الفلسطيني بأرضه، وهذه الأمثال رغم قلتها تعبر عن حاجة الفلسطيني للماء والخضرة، وهما أساس الحياة عنده، نحو المثل الشعبي القائل: "المي والأرض الخضرا خير"[2].

ويقوم المثل الشعبي الفلسطيني في بعده الاجتماعي بوظيفة النقد، وتوجيه سلوك المجتمع، ومن ذلك نبذ العلاقات الجنسية غير الشرعية، وتسليط الضوء على صفات من يقوم بها، بلهجة تعبر عن سخط المجتمع منه، نحو المثل الشعبي: "إذا المية بتروب..... بالتوب"[3].

كما يصور المثل الشعبي طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الناس، وما يتخللها من اضطرابات وصراعات، وقد وجد الفلسطيني في عيون الماء الدالة على الاستقرار خير مثال لتشبيه عودة الحياة إلى طبيعتها بين الناس في العلاقات الاجتماعية، فيقال المثل: "عادت المياه لمجاريها".

---

[1] ينظر: أمزيان، سمية: المستويات الجمالية للمثل الشعبي الجزائري: أمثال الجزائر والمغرب العربي. رسالة دكتوراة، جامعة وهران، الجزائر، 2019، ص11.

[2] جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني. ص71.

[3] لوباني، حسين: معجم الأمثال الفلسطينية. ص49.

البعد الديني

الأدب الشعبي أدب متوارث من جيل لآخر، ويمتاز بالمرونة في استجاباته لمستجدات كل عصر من العصور يتواجد فيه، ذاك أنه أدب يتناقل بالرواية الشفوية، والراوي في نقله يضيف إليه أو يحذف منه ما يتناسب مع الأفكار والمعتقدات والقيم السائدة في المجتمع، ومن هنا كان للبعد الديني حضور في بعض الأشكال الأدبية الشعبية.

وقد كانت الحكاية الشعبية في مقدمة فنون الأدب الشعبي تأثرا بالبعد الديني، فهي تعبير إنساني قبل كل شيء، وإطار أدبي اختاره الإنسان الشعبي ليبث فيه أفكاره ومعتقداته وقيمه وعاداته، في غلاف من التسلية والتشويق[1].

وقد أشار الأشهب في دراسته للحكاية الشعبية، والعوامل المؤثرة فيها، إلى أنها تتأثر بمجموعة من العوامل، منها العامل الديني، عندما يرتكز المضمون الأخلاقي فيها والقيمي على تعاليم الدين الإسلامي، وتكون الغاية منها العبرة والموعظة، فجعل الحكاية الدينية شكلا من أشكال الحكايات الشعبية الفلسطينية[2].

وغالبا ما يتجلى البعد الديني في الحكاية الشعبية في صورة البطل، ويكون ذلك في وجوه عدة، منها: التعاليم الدينية الجارية على لسانه، أو أخلاق يتحلى بها، أو فلسفة يتبناها تكون ذات مرد إسلامي إن كان الراوي مسلماً، أو توظيف نصوص وقصص دينية[3].

ففي حكاية (بليبل الصياح)[4] تلقي الخالة الأطفال الصغار في نهر، بعد أن حفظتهم في صندوق خشبي، وقد جرى بهم النهر إلى أن التقط رجل هذا الصندوق، فأخذ الأولاد واهتم برعايتهم، هذه القصة تلتقي

---

[1] ينظر: الحسن، غسان: الحكاية الخرافية في ضفتي الأردن. ط1، دمشق: دار الجيل، 1988، ص11.

[2] ينظر: الأشهب، رشدي: مقدمة في الحكاية الشعبية. مجلة الفكر الأدبي، العدد(75)، 1987، ص40.

[3] ينظر: محمد، إيمان: البطل في الحكاية الشعبية الفلسطينية. ص184.

[4] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص102.

بشكل واضح مع قصة موسى، عليه السلام، في القرآن الكريم، عندما ألقته أمه في النهر، ووصل إلى قصر فرعون، فاهتم برعايته.

وقد يستدل على البعد الديني في الحكاية الشعبية، التي وظفت عيون الماء، من خلال الإشارات البسيطة التي تجري على لسان البطل، فهذه ودعه في حكاية (ودعة مفرقة سبعة)[1]، تعلم من الخادمة، بالقرب من عيون الماء، أنها سبب في تفريق أخوتها السبعة، بعد أن نذروا نذرا بألا يعودوا إلى البيت حتى تنجب أمهم بنتا جميلة، ومعروف أن النذر من المصطلحات الفقهية في الدين الإسلامي، له أحكامه وشروطه.

وتتأثر الأغنية الشعبية بالمعتقدات الدينية السائدة في المجتمع، وهي صدى لمعتقدات مؤديها، فقد لاحظ الباحث مرشود في دراسته للشعر الشعبي، عند الشاعر الفلسطيني محارب ذيب، حضور النزعة الدينية بشكل جلي في أشعاره، إذ يلمس القارئ أو الدارس لأشعاره بروز النزعة الدينية في ألفاظه ومعانيه بشكل واضح، وقد تجلت هذه النزعة في افتتاحيات قصائده وفي خواتمها، وقصائده متميزة من حيث المعنى الديني الصادر عن نفس مؤمنة بالله[2].

وقد ساد في المجتمع الفلسطيني ثقافة احترام الأديان السماوية، وهذا وجه من وجوه معاني الصمود والمواجهة للاحتلال الصهيوني، وفي الوقت نفسه يعبر عن معاني التسامح والتعاون المنصوص عليه في الديانات السماوية، ومن هنا عبرت الأغنية الشعبية بحضور صورة عيون الماء عن هذه المعاني في قول موسى حافظ:

حِبابي ارجَعوا لِلصوب وِالَيَم لَصوب النَبِع والبُستان وِالَيَم

---

[1] ينظر: الأشهب، رشدي: كان ما كان: حكايات شعبية من مدينة القدس. ص101.

[2] ينظر: مرشود، لطفي: الشاعر الفلسطيني محارب ذيب: حياته وشعره. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2004، ص91.

تـــايرجع ابِـــن أَحمـــد وابـــن ولِـــيم يغنـــوا لِلـــوَطَن أَجمَـــل عِتـــاب[1]

فهذا النص غني بالقيم الدينية السامية، المتصلة بصورة مباشرة بـالقيم الإنسـانية، فالمحبـة والوحـدة والتمسك بالوطن من أهم الأسس الدينية التي يقوم عليها تماسك المجتمع وبقائه.

وبما أن المثل الشعبي يعبر عن تجارب الحياة، فإن للبعد الديني أثرا في مضمونه، واختيـار عباراتـه، ذلك أن الدين من أهم المؤثرات في الحكم على تجارب الحياة والتعامل معها، فـيعكس المثـل طريقـة تعامل الفرد مع هذه التجارب، وفق المعايير والقيم والأخلاق التي نص عليها الدين، كما يتصل بتجارب الحياة قواعد الأخلاق والفضائل، التي اعتقد بها المجتمع، ومما لا شك فيه أن الدين هو المصـدر الأول لهذه القواعد، كما يستخلص من تجارب الحياة قواعد تعليمية مستحسنة تتفق مع قيم المجتمع ودينه، ومن ناحية أخرى فإن المثل الشعبي يخلد الحكمة المتوارثة من الأجيال السابقة، التي تنسجم مع تعاليم الـدين، وتدعهما في العلاقات الاجتماعية بين الناس، حتى يصعب التفريق أحيانا بين المثل الشعبي والمأثورات الدينية[2].

فالتوبة من المعاني الجديدة التي أوجدها الدين الإسلامي، وهي الطريق الوحيد للرجـوع عـن الخطـأ المرتكب، وقد وظف المثل الشعبي هذا المعنى في حديثه عن المرأة المنحرفة في سلوكها، وأشار إلـى بعدها عن التوبة، ولم يجد أفضل من الماء لتشبيهها في مثل هذه الحالة، في المثل"إذا المية بتروب..... بالتوب"[3]

---

[1] حافظ، موسى: فنون الزجل الشعبي الفلسطيني. ص22.

[2] ينظر: عطا الله، عيسى: قالوا في المثل. ط1، الأردن: منشورات وزارة الثقافة، 1995، ص9.

[3] لوباني، حسين: معجم الأمثال الفلسطينية. ط1، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1999، ص49.

البعد الأسطوري

لجأ الإنسان البدائي القديم إلى الأسطورة لتفسير مظاهر الطبيعة المحيطة به، محاولا من خلالها تقديم تفسير مقنع له لما يجري في الكون حوله، فأبدع تفسيرات من وحي خياله، اعتقد بها، وأقنع بها غيره، حتى تبنت الجماعة هذا الاعتقاد، لأنه وجد فيها بعدا منطقيا يجيب عن كثير من الأسئلة التي تشغله، وتدور في عقله، تجاه الظواهر الكونية حوله، خاصة في ظل غياب المفسر لها، كغياب النص الديني والكتب السماوية في تفسيرها، فاكتسبت الأسطورة قداستها في ظل هذا الفراغ المنطقي والروحي في تفسير الطبيعة والكون[1].

وثمة ربط في الحكاية الشعبية بين الحاجات النفسية والروحية والأساطير، فقد كانت الحكاية في صورتها الأولى عبارة عن مجموعة من الأخبار تتصل بالتجارب الروحية والنفسية للأفراد، عاشوها منذ زمن قديم، وحرصوا على الاحتفاظ بها، ولكي تتصف الحكاية الشعبية بالحيوية والجدة فقد ارتبطت في معظم الأحيان بالأساطير وحكايات البطولة، وحكايات الآلهة وأنصاف الآلهة[2].

إلا أن هناك اختلافا بين الحكاية الشعبية والأسطورة، أشار إليه (بتلهايم)، ويكمن هذا الفرق في أن أحداث الأسطورة أحداث مذهلة، لا يمكن أن يصادفها أحد في حياته، بينما الحكاية الشعبية رغم أن معظم أحداثها من وحي الخيال، إلا أنه يمكن أن تصادف في الحياة اليومية، ومن حيث النهاية، فإن غالبية الأحداث الأسطورية تنتهي بنهاية مأساوية، أما الحكاية الشعبية فغالبا ما تكون نهاياتها سعيدة[3].

ومن حيث العلاقة بالمعتقد الديني فإن الأسطورة أكثر ارتباطا من الحكاية في التعبير عن المعتقد الديني، ذلك أن الأسطورة نشأت في أحضان المعتقدات الدينية في الحضارات القديمة.

---

[1] ينظر: إبراهيم، نبيلة: أشكال التعبير الشعبي. ص179.

[2] ينظر: دير لاين وفردريش فون: الحكاية الخرافية. ترجمة: نبيلة إبراهيم، ط1، بيروت: دار القلم، 1973، ص6.

[3] ينظر: بتلهايم، برونو: التحليل النفسي للحكايات الشعبية. ترجمة: طلال حرب، ط1، بيروت: دار المروج، 1985، ص59.

وقد جسدت الحكاية الشعبية الفلسطينية البعد الأسطوري خير تجسيد في تضمينها دلالات الخصب والحياة لعيون الماء ومصادرها المختلفة، لاعتقاد الفلسطيني الشعبي بوجود أرواح أو جن تسكن العين، وتسيطر عليها، وقادرة على جلب النفع ودفع الضرر، وما الجن والأرواح إلا معتقد متطور لآلهة الخصب والحياة، وآلهة القحط والموت في الحضارات القديمة.

مثل هذا الاعتقاد نجده في (حكاية الحطاب)[1] حينما لجأ الحطاب إلى بئر عميقة للحصول على فولته التي وقعت منه في البئر، وقد أعطته جماعة الجن باطية للطعام، يطلب منها ما يشتهي من الأكل والشرب، فيتحقق طلبه على الفور.

كما جعل الفكر الأسطوري لآلهة الخصب قدرة على الحلول والتشكل في رموز إنسانية أو حيوانية أو نباتية، وهي تقسم إلى قسمين، الأول: آلهة الخصب والحياة والخير، والثانية آلهة الموت والجدب والحرب والدمار، مثل هذه الرموز نجدها في حكاية (غزالة)[2]، ففيها تتحول الغزالة إلى فتاة جميلة بالقرب من عين الماء، ويتزوجها الصياد، وفيها تتحول بنت أخرى إلى غول، وجدها الصياد في المكان ذاته، الذي وجد فيه الغزالة.

والمعتقد ذاته في حكاية (وهل يكفي الحظ)[3]، التي كشفت عن قدرة ما العيون السحرية، على تحويل الإنسان إلى حيوان، والعكس، بأن حولت الحمامات من إنسان إلى حيوان، ومن حيوان إلى إنسان. وفي حكاية (الطيور البيضاء)[4] عندما حول ماء العين وجه الفتاة القبيح إلى وجه جميل، وفي حكاية ودعة مفرقة سبعة[5] توحدت المرأة مع عين الماء، وتضمن هذا التوحد معاني الحياة والعودة، والبحث عن

---

[1] ينظر: كناعنة، شريف: الحطاب حكاية شعبية فلسطينية. ص1_23.

[2] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص141.

[3] ينظر: الغول، فايز: الدنيا حكايات. ص22.

[4] ينظر: البوجي، محمد: التراث الشعبي والمواجهة. ص366.

[5] ينظر: الأشهب، رشدي: كان ما كان: حكايات شعبية من مدينة القدس. ص101.

المفقود، وجميعها من معاني الخصب التي تمنحها القوة السحرية: (آلهة الخصب، الجن، الأرواح الخيرة)، المسيطرة على العين.

ولاعتقاد الفلسطيني بأن عيون الماء مسكن للأرواح، التي تقابل الآلهة في الفكر الأسطوري، فقد جعل عيون الماء ملجأ له، هروبا من الموت، وطلبا للحياة، كما فعل جلجامش في البحث عن ماء الخلود، وكما حدث مع اليتيمين في حكاية (بقرة اليتامى)[1]، عندما هربا من الموت إلى عين الماء فأنقذتهما من براثينه، إلى جانب ذلك فقد تضمنت الحكاية فكرة حراسة العين بالأرواح، وسيطرتها عليها، كما تضمنت فكرة حلول الأرواح في جسم الحيوان، ودلالة الخصب والحياة من خلال دلالة الرمز الحيواني الغزال، وهو رمز من رموز الشمس وآلهة الخصب في الفكر الأسطوري.

والغولة هي الوجه الأسود لعشتار، إلهة الموت والقحط، وكثيرا ما تقدم الحكاية الشعبية الغولة على أنها خاطفة للأولاد، وقاتلتهم، كما أن الغولة كثيرا ما تظهر في الحكاية الشعبية بجوار عيون الماء، ففي حكاية (حديد ومديد)[2] أكلت الغولة ستة من الأبناء السبعة، وقد جرت الحكاية بجوار عين ماء، وعندما عجزت الغولة عن أكل الابن السابع أخذت تحتال عليه، بأن يخرج إلى عين الماء ليملي منها، فكانت كلما تذهب إلى العين تناديه: يا حديد مديد يلا انروح نملي مي، فيقول لها: يلعن أمك أنا رحت مليت وجيت، إلى أن أوقعت به بالحيلة.

وعلاقة الأغنية الشعبية بالأسطورة تبدأ من اعتقاد الإنسان القديم بفاعلية الأغنية الشعبية، كطقس من الطقوس الأسطورية في الفكر الأسطوري، فقد وظفها للسيطرة على القوى الغيبية، وفي محاولة إرضاء الآلهة والأرواح، لاعتقاده بالتأثير السحري لكلماتها وموسيقتها، لتحقيق النفع والخصب، ودفع الأذى والجدب والموت[3].

---

[1] ينظر: كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: قول يا طير. ص72.

[2] الحاجة لطيفة، العمر(73) سنة، من سكان قرية عسلة في محافظة قلقيلية.

[3] ينظر: الديك، إحسان: النماذج البدائية في الأغنية الشعبية الفلسطينية: بكرة العيد وبنعيد أنموذجا. ص2073.

وأبعد من ذلك، فإن هناك أناشيد وتراتيل توجه بها الإنسان القديم إلى الأم الكبرى(عشتار)، وليس غريبا أن يبقى اسمها أو لقبها ماثلا في ذاكرة الناس، في الأغاني الشعبية المتوارثة، وتبقى مقاطع من تلك الأغاني والأناشيد ترددها الألسنة، بعد أن فقدت دلالتها القديمة[1].

فالأغنية الشعبية في مقدمة الفنون التي نشأت في رحاب الدين في الحضارات القديمة، "فبعد أن كان الفن ضرورة وحرفة، وسلاحا سحرية في يد الجماعة، في صراعها من أجل البقاء، من خلال الفعل والتأثير، أصبح مصدرا للمتعة، وفقدت أصوله السحر الديني، ولم يحتفظ إلا بشكله، لكنه بقي على مستوى الأداء ضاربا بجذوره العميقة في أرض الأسطورة والدين والسحر"[2].

وأكثر وقت يحتاج فيه الإنسان الشعبي إلى الطقوس الأسطورية يكون في حالة الموت والبعد والفراق، لذلك يلجأ إلى الممارسات السحرية ذات البعد الأسطوري لرد البعيد إلى أهله، بالقرب من عيون الماء، ممارسات ورثها عن أجداده، دون وعي منه بأصولها ودلالاتها الأسطورية القديمة، في مثل:

يـــا شـــبنا يـــا كبيـــر جـــودك علينـــا زي بحـــر النيـــل

يـــا شـــب عـــاود لهـــم عـــاود وأنـــت طويـــل البـــال ومهـــاود[3]

تلاحظ الباحثة الربط بين النيل ودلالة الخصب من جهة، وبين عودة الشب وعودة الخصب من جهة ثانية، وبالعودة إلى الفكر الأسطوري فإن الإنسان القديم مارس الطقوس بالقرب من عيون الماء لضمان عودة عشتار إلهة الخصب والحياة، من العالم السفلي، عالم الأموات.

فقد وجد الفلسطيني في طقوس عودة عشتار بجوار مصادر المياه دلالات الخصب والحياة، وكما انتظر الإنسان عودة عشتار وعودة بعل في الحضارات القديمة، فإن العريس في الثقافة الشعبية الفلسطينية

---

[1] ينظر: الديك، إحسان: تجليات الأم الكبرى(عشتار) في الثقافة الشعبية الفلسطينية. مجلة التراث والمجتمع، العدد(55)، 2013، ص29.

[2] الديك، إحسان: النماذج البدائية في الأغنية الشعبية الفلسطينية: بكرة العيد وبنعيد أنموذجا. ص2070.

[3] عودة، عمر: البكائيات الشعبية الفلسطينية. 236.

ينتظر عروسه بالقرب من أماكن تواجد عيون الماء، فقد حرصت الأغنية الشعبية الخاصة بـــالأعراس على تمثيل هذا البعد، على نحو الزغرودة التالية:

إي وي ها... جيت اغني وقبلي ما حدا غنا

إي وي ها... بقاع وادي فيه الطير يستنا

إي وي ها... وريتك با محمد بهل العروس تتهنا

إي وي ها... وتضل سالم ويضل الفرح عنا[1]

ومن رموز الأم الكبرى في الفكر الأسطوري الذهب بلونه الأصفر، فهو لون أشـــعة الشـــمس الباعـــث للحياة، وهو لون تماثيل آلهة الخصب في الحضارات القديمة، وهو لون الغزالين اللذين عثر عليهما في حفر بئر زمزم، وقد علمنا أن الغزال من رموز آلهة الشمس في الفكر الأسطوري، ومن هنـــا وحـــدت الأغنية الشعبية بين الرموز الثلاث: (الخصب والمرأة والذهب) في نصها:

جفرا يا هالربع نزلت على العين

جرتها فضة وذهب وحملتها للزين[2]

والمثل الشعبي شأنه شأن الحكاية الشعبية والأغنية الشعبية، فقد تجلت فيه الأم الكبرى(عشتار)، وعكس قداسة المرأة في الذهنية الشعبية الفلسطينية، من خلال قدرتها على النماء، وتمثلها خصوبة عشتار، فكما خرجت عشتار من العالم السفلي، في فصل الربيع، حاملة معها خيرات الخصب والحياة، وكمـــا أنبتـــت افردويت الخضرة بحلولها على جزيرة قبرص، كذلك هي المرأة في موروثنا الشعبي، ف(المرأة عمارة) في المثل الشعبي[3].

---

[1] البرغوثي، عبد الطيف: الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن. ص43.

[2] البرغوثي، عبد الطيف: نفسه. ص56.

[3] ينظر: الديك، إحسان: تجليات الأم الكبرى(عشتار) في الثقافة الشعبية الفلسطينية. ص32.

وتتشكل عشتار في الفكر الأسطورية في رموز حيوانية كثيرة، وقد جمعت الحكاية الشعبية والأغنية الشعبية بين الرمز الحيواني والرمز المائي في عرض صورة عيون الماء، وكلاهما دال على الخصب، والدلالة ذاتها نجدها في المثل الشعبي: "العنز الجربة ما بتشرب إلا من راس العين"[1].

وكما أن الإنسان القديم نشد الحياة والاستقرار بالقرب من عيون الماء، لاعتقاده بسيطرة آلهة الخصب والحب والحياة عليها، فقد مارست المرأة الفلسطينية الطقس ذاته، في زيارتها لنهر روبين، وقد عبر المثل الشعبي عن هذه الدلالة في "يا بطلقني يا بتروبني"[2].

غير أن الآلهة نوعان، منها آلهة الخصب والحياة، ومنها آلهة الشر والموت والجدب، وكما عبر المثل الشعبي عن رغبة الإنسان في استرضاء آلهة الخصب، فإنه أيضا عبر عن خوفه من النوع الثاني من الآلهة، كما في المثل: "تحت النهر الهادي وادي"[3]، وفي المثل: "الميه الهادية خاف منها"[4].

---

[1] جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني. ص46.

[2] لوباني، حسين: معجم الأمثال الفلسطينية. ص872.

[3] لوباني، حسين: نفسه. ص257.

[4] جبر، محمد: المثل الشعبي الفلسطيني. ص113.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي أعانني على اتمام هذا البحث، وفي الختام فإن البحث توصل إلى مجموعة من النتائج، توجزها الباحثة في النقاط الآتية:

- تتصل عيون الماء، وما يدور حولها من معتقدات، وما مورس حولها من ممارسات، بالثقافة الشعبية، التي تمتاز بديمومتها وانتقالها من زمن لآخر، ومن مكان لآخر، كما تتصل عيون الماء بالتراث الحضاري لأهمية الماء ذاته في وجود الحضارات البشرية.

- أحاط الإنسان القديم الماء ومصادره بهالة من التقديس، ومارس لها الشعائر والطقوس رغبة في استمرارها، ولضمان الخصب مارس طقوسه الاحتفالية الشعائرية بالقرب من أماكن تواجدها، خاصة الينابيع، التي فسر وجودها بوجود أو مرور إله في الثقافات القديمة قبل الإسلام، او رجل صالح أو ولي في الثقافات الشعبية ما بعد الإسلام، حتى غدت مكانا للتبرك والدعاء، والشفاء من الحسد والعين والسحر.

- إن لجوء الإنسان القديم في طقوسه وشعائره إلى عيون الماء إنما يعود بالدرجة الأولى إلى أهمية الماء في حياة الإنسان، كذلك إلى فكرة الربط بين الطبيعة والآلهة، بأن جعل لمظاهر الطبيعية الصامتة والمتحركة آلهة يعبدها، ويتقرب إليها بالطقوس للحصول على رضاها، وتجنب غضبها.

- تنطلق المعتقدات القديمة حول عيون الماء، وما يتعلق بها من طقوس، من اعتقاد الإنسان القديم بسيطرة الآلهة عليها، وبقدرتها السحرية على الخصب والحياة، أو الموت والجدب، فعلاقة الإنسان القديم بالماء علاقة أراد منها الاستمرار والخلود والحياة والخصب والتجدد، واستعان بالآلهة التي تسيطر على مصادره من خلال الطقوس والشعائر البدائية، لمواجهة القحط والجدب والموت.

- تحتل المعتقدات الشعبية مساحة واسعة من الفولكلور الشعبي، وتتسم في الثقافة الشعبية بطابع القداسة، حتى يصعب التمييز بينها وبين الدين لدى الكثير من العامة، ونظرا أهمية الماء في حياة الفلسطيني فقد أحاطه بمجموعة من المعتقدات، ومارس من أجله جملة من الممارسات الشعبية، وقد تلاقت حاجة الفلسطيني للماء مع حاجة الإنسان القديم له، فورث عنه معتقداته حول الماء ومصادره.

- اعتقد الفلسطيني الشعبي أن عيون الماء مسكونة بأرواح الأولياء الصالحين، أو الجن، فجعلوا لتلك العيون قدرة شفائية لبعض الأمراض، وهذا الاعتقاد يلتقي مع اعتقاد الإنسان البدائي بسيطرة الروح الصاعدة من العالم السفلي على عيون الماء، واعتقاد الفلسطيني بوجود روح تحرس العين يتلاقى مع اعتقاد الإنسان القديم بحراسة الألهة لعيون الماء.

- كثيرا لا تفرق الثقافة الشعبية الفلسطينية بين الروح والجن في الاعتقاد الشعبي، وربما يكون استبدال الجن بالروح في معتقداته حول الماء لغموض الروح أولا، ونفي تدخلها وتأثيرها في حياة الإنسان بمجيء الإسلام ثانيا، فوجد الإنسان البسيط في الجن بديلا للروح.

- ومن ناحية أخرى ربط الفلسطيني في معتقده الشعبي بين عيون الماء والإنسان، ووحد بينهما على أساس الجنس، وتتلاقى العين والمرأة في دلالة الخصب.

- اعتقد الإنسان القديم بوجود أصناف من الحيوانات تسكن عيون الماء، تحرسها، وتضمن استمرار جريان الماء فيها، كالحيات، والجمال، والحيوانات المفترسة، ولعل هذا الاعتقاد نابع من فكرة الاعتقاد بتناسخ الأرواح وحلولها، وفكرة الحلول والتناسخ جلية في المعتقد الشعبي الفلسطيني.

- كما مارس الإنسان القديم شعائره وطقوسه الأسطورية لضمان عودة إله الخصب من عالم الأموات، بالقرب من عيون الماء، ومجاريها، فقد مارس الفلسطيني الشعائر بالقرب من المقامات

والمزارات التي أقيمت بجوار عيون الماء أو مجاري الأودية، فقدم النـــذور، وأشـــعل الشـــموع، ونظف المقام، وعلق على جدرانه المناديل البيضاء التي ترمز إلى الانتقال من حياة إلى أخرى.

- المورث الشعبي صدى لحياة الأمة الصادر عنها، وديوانها في تصوير جوانب حياتـــه المختلفـــة، المادية والروحية، فإن أشكاله القولية زاخرة بأشكال التعبير عن حضـــور عيـــون المـــاء فيهـــا، وبدلالاتها المتصلة بالموروث القديم، غير أن اللافت في استقراء أشكال الموروث الشعبي القوليـــة هو عدم التفريق بين مصادر الماء: (الوادي والنهر والنبع والعين والبئر) في التوظيـــف، وتعلـــل الباحثة ذلك بتلاقي دلالات الرمز المائي في أشكاله المختلفة، إذ أن معظـــم المعتقـــدات الشـــعبية المتوارثة اهتمت برمزية الماء نفسه، ومدى فاعليته في حياة الإنسان، بغض النظر عن مصـــدره، فليس من المهم عند الفلسطيني دلالات العين أو البحر أو الوادي أو البئر، بقدر أهمية الماء نفســـه في هذه المصادر، وقد تخلو قرية من عين ماء، إلا أن المعتقدات حولها حاضرة في مصدر آخـــر، بحسب البيئة الجغرافية التي يعيش فيها الإنسان الشعبي.

- من خلال تتبع حضور عيون الماء في أشكال الأدب الشعبي: الحكاية الشعبية، والأغنيـــة الشـــعبية والمثل، فقد لاحظت الباحثة أن هذا الحضور يحمل في دلالاته أبعادا نفســـية واجتماعيـــة ودينيـــة وأسطورية، يمكن الوقوف عليها لفهم صورة عيون الماء في التراث الشعبي الفلسطيني، وعلاقتهـــا بالفرد والمجتمع، وما يسود فيه من أفكار ومعتقدات وعلاقات، ذات أبعاد مختلفة.

- عيون الماء جزء من البيئة الشعبية، لجأ إليها الإنسان، لأنه وجد فيها ملاذا لنفسه المتعبة، المثقلـــة بهموم الحياة وضجيجها، وبجوارها يستمتع بمناظر الخضرة الساحرة، وتتحلى مشـــاعره بالهـــدوء والراحة والسكينة قرب ماء العين والتعبير عن المشاعر، وقد عبرت الأغنية الشعبية عن المشاعر النفسية التي تعتري الإنسان بالقرب من عيون الماء، وجسدت المعاني المرتبطة بهـــذه المشـــاعر بشكل جلي.

- جسدت الحكاية الشعبية الفلسطينية البعد الأسطوري خير تجسيد في تضمينها دلالات الخصب والحياة لعيون الماء ومصادرها المختلفة، لاعتقاد الفلسطيني الشعبي بوجود أرواح أو جن تسكن العين، وتسيطر عليها، وقادرة على جلب النفع ودفع الضرر، وما الجن والأرواح إلا معتقد متطور لآلهة الخصب والحياة، وآلهة القحط والموت في الحضارات القديمة.

- يصور البعد الاجتماعي لصورة عيون الماء طبيعة العلاقة الاجتماعية بين الناس بجوار عيون الماء، وعلاقة الإنسان بأرضه.

- تضمن أشكال التعبير الشعبي إشارات ذات بعد ديني في تقديم صورة عيون الماء في التراث الشعبي الفلسطيني، ويعود ذلك إلى تأثير الدين الإسلامي بألفاظه ومعانيه في التراث الشعبي.

المراجع العلمية

الألوسي، محمود شكري: *بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب*. شرح وتصحيح وضبط: محمد الأثري، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).

إبراهيم، نبيلة: *أشكال التعبير في الأدب الشعبي*. ط1، القاهرة: دار مكتبة غريب للطباعة، 1991.

أحمد، أسماء: *أساطير حول الماء وأساطيله. حولية كلية اللغة العربية*، جامعة الأزهر، المجلد(11)، العدد(24)، 2020.

إسماعيل، عز الدين: *التفسير النفسي للأدب*. ط4، بيروت: دار الثقافة، 1981.

الأشهب، رشدي: *كان ما كان: حكايات شعبية من مدينة القدس*. دار علوش للطباعة والنشر، (د.ت).

الأشهب، رشدي: *مقدمة في الحكاية الشعبية*. مجلة الفكر الأدبي، العدد(75)، 1987.

أمزيان، سمية: *المستويات الجمالية للمثل الشعبي الجزائري: أمثال الجزائر والمغرب العربي*. رسالة دكتوراة، جامعة وهران، الجزائر، 2019.

الباش، حسن والسهيلي، محمد: *المعتقدات الشعبية في التراث الشعبي*. دمشق: دار الجليل، (د.ت).

بتلهايم، برونو: *التحليل النفسي للحكايات الشعبية*. ترجمة: طلال حرب، ط1، بيروت: دار المروج، 1985.

البدوي، مرزوق: *أناشيد الأطفال في الشعر الفلسطيني من سنة 1920_1948*. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2004.

بدير، حلمي: *أثر الأدب الشعبي في الشعر الحديث*. الاسكندرية: دار الوفاء، 2002.

البرغوثي، عبد الطيف: *الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن*. جامعة بير زيت: مكتبة الوثائق والأبحاث، 1979.

برباش، مريم: *الحكاية الشعبية في منطقة المسلية*. رسالة ماجستير، جامعة المسيلة، الجزائر، 2012.

بشور، وديع: *سومر وأكاد*. دمشق، (د.مط)، 1981.

البوجي، محمد: *التراث الشعبي والمواجهة*. ط2، غزة: مطبعة القدس، 2011.

البيديل، م. ف: *سحر الأساطير*. ترجمة حسان ميخائيل اسحاق، دمشق: دار علاء الدين، 2005.

جاد الله، خليفة: *الأدب الشعبي في فلسطين: أغاني النساء أنموذجا*. بحث مقدم إلى المؤتمر الفني الثالث للفن والتراث الشعبي الفلسطيني: واقع وتحديات. نابلس، 2011.

جبر، محمد: *المثل الشعبي الفلسطيني: سلسلة التراث الشعبي من الخابية 2*، دائرة المعارف الفلسطينية، 2010.

جفري بارندر: *المعتقدات الدينية لدى الشعوب*. ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، الكويت: عالم المعرفة، 1993.

الجوهري، محمد: *علم الفولكلور: دراسة في المعتقدات الشعبية*. ط1، القاهرة: دار المعارف، (د.ت).

الجوهري، محمد وآخرون: *الدراسات العلمية للعادات والتقاليد الشعبية*. مصر: دار المعرفة الجامعية، 1988.

حافظ، موسى: *فنون الزجل الشعبي الفلسطيني*. القدس: منشورات البيادر، 1988.

حتى، فيليب: *تاريخ العرب*. ط3، بيروت: دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، 1958.

الحسن، غسان: *الحكاية الخرافية في ضفتي الأردن*. ط1، دمشق: دار الجيل، 1988.

أبو حسين، محمد رزق: *المؤثرات الدينية في الفلسفة اليونانية*. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2012.

حمدان، عبد الرحيم: جماليات القرية في الرواية الفلسطينية: قرية بيت حنون أنموذجا. *مجلة كلية فلسطين التقنية للأبحاث*، العدد(1)، 2014.

حنيطي، أحمد: *مقام سيدي شيبان*. القدس: مؤسسة الرؤيا الفلسطينية، 20016.

الخادم، سعد: *الفن الشعبي والمعتقدات السحرية*. مصر: مكتبة النهضة المصرية، (د.ت).

أبو خاطر، مسلم: *الشخصية في الحكاية الشعبية الفلسطينية*. رسالة ماجستير، جامعة الأقصى، غزة، 2017.

خان، محمد عبد المعيد: *الأساطير العربية قبل الإسلام*. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937.

خراز، تمام: *الزجل الشعبي الفلسطيني*. بحث جامعي، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2009.

الخطيب، محمد: *الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية*. دمشق: دار علاء الدين للنشر، 2004.

الخليلي، علي: *الغول*. نابلس: مطابع الاقتصاد، 1982.

خموم، صفاء ولوز، وسام: *البعد النفسي في الحكاية الشعبية: نماذج مختارة من الوطن العربي*. رسالة ماجستير، جامعة العربي، الجزائر، 2017.

خورشيد، فاروق: *عالم الأدب الشعبي العجيب*. القاهرة: دار الشروق، 1991.

دير لاين وفردريش فون: *الحكاية الخرافية*. ترجمة: نبيلة إبراهيم، ط1، بيروت: دار القلم، 1973.

الديك، إحسان: تجليات الأم الكبرى(عشتار) في الثقافة الشعبية الفلسطينية. *مجلة التراث والمجتمع*، العدد(55)، 2013.

الديك، إحسان: صدى عشتار في الشعر الجاهلي. *مجلة جامعة النجاح للأبحاث*، المجلد(15)، 2001.

الديك، إحسان: *موروثنا الشعبي نبض هويتنا*. ورقة بحثية مقدمة إلى مؤتمر التراث الشعبي الفلسطيني السادس بعنوان: "مؤتمر التراث الشعبي في محافظة جنين والجليل: هوية وانتماء"، جامعة القدس المفتوحة، فرع جنين، 8\11\2017.

الديك، إحسان: النماذج البدائية في الأغنية الشعبية الفلسطينية: أغنية (بكره العيد وبنعيد). نموذجا، *مجلة جامعة النجاح للأبحاث*، المجلد(24)، العدد(7).

الديك، إحسان: الوعل صدى تموز في الشعر الجاهلي. *مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات*، العدد(2)، 2003.

رقطان، زهير: *أوغاريت....ذاكرة حقل*. رام الله: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، 2003.

زكي، أحمد: *الأساطير: دراسة حضارية*. ط2، بيروت: دار العودة، (د.ت).

زولهايم: *الأمثال العربية القديمة*. ترجمة: رمضان عبد التواب، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984.

زيادنة، صالح: *حكايات من الصحراء*. ط1، رهط: بلدية رهط، 2003.

سلطان، أسامة وكلاب، محمد: استدعاء الفلكلور في الشعر الفلسطيني المعاصر... المعتقدات الشعبية أنموذجا. *مجلة جامعة الأقصى*، المجلد(21)، العدد(1).

السناد، جلال: *المثل الشعبي ودلالاته الاجتماعية*، سوريا: دار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع، 1992.

السواح، فراس: *جلجامش: ملحمة الرافدين الخالدة*. دمشق: دار علاء الدين، 1996.

السواح، فراس: *لغز عشتار*. ط6، دمشق: دار علاء الدين، 1996.

أبو سويلم، أنور: *دراسات في الشعر الجاهلي*. بيروت: دار الجيل، 1987.

شحادة، عبد الفتاح: *حول الحكاية الشعبية الفلسطينية وقصص الأطفال*. ورقة عمل مقدمة إلى اليوم الدراسي بعنوان "أدب الأطفال في فلسطين: واقع ومستقبل، المنعقد بتاريخ 2008/3/30م في مركز القطان للطفل.

شوامرة، عوني: *تاريخ البيرة مع معالمها الأثرية*. فلسطين: وزارة السياحة والآثار، 2015.

صالح، أحمد رشدي. *الأدب الشعبي*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1971، ص123.

الطائي، حاتم: *الديوان*. دراسة وتحقيق: عادل سليمان جمال، ط2، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1990.

طه، نضال: *المعتقدات الشعبية في فلسطين*. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2009.

ظاهر، نداء: *الطقوس والموروثات الشعبية في الأدب الشعبي الفلسطيني بريف مدينة نابلس*. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2017.

عابي، غنية: *الدلالات الاجتماعية في الأمثال الشعبية: منطقة أولاد عدي لقبالة أنموذجا*. رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف، المسلية، الجزائر، 2016.

عبد الواحد، فاضل: *عشتار ومأساة تموز*. ط2، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة للنشر، 1986.

عرفة، إبراهيم ومعتوق، جمال: الماء بين المقدس والطقوس الممارسة...دراسة مونوغرافية في منطقة بئر الذهب تبسة. *مجلة أنثروبولوجيا* العدد(5)، 2019.

عرنيطة، يسرى جوهرية: *الفنون الشعبية في فلسطين*. ط3، (د.ط)، 1998.

عزيز، كارم: *أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم*. دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1999.

عطا الله، عيسى: *قالوا في المثل*. ط1، الأردن: منشورات وزارة الثقافة، 1995.

علقم، نبيل: *مدخل لدراسة الفولكلور*. رام الله: جمعية إنعاش الأسرة، 1993

أبو عمشة، عادل: *حكايات حول عيون الماء في فلسطين...عين زواتا نموذجا*، (د.مط)، (د.ن)، 2009.

عودة، عمر: *البكائيات في الأدب الشعبي الفلسطيني*. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس،2008.

عوض، ريتا: *أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث*. ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1978.

عياش، خالد: *الجن في الأدب الشعبي الفلسطيني*. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2018.

عيفاوي، سليمة: *الدلالة الاجتماعية في الحكاية الشعبية بمنطقة القصور*. رسالة ماجستير، جامعة المسيلة، الجزائر، 2010.

غوانمة، محمد: أغاني النساء في الأردن. *المجلة الأردنية للفنون*، المجلد(2)، العدد(1)، 2009.

الغول، فايز: *أساطير من بلادي*. ط2، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، 1966.

الغول، فايز: *الدنيا حكايات*. القدس: المطبعة العصرية، (د.ت).

غويربر: *أساطير الإغريق واليونان*. ترجمة: حسني فريز، عمان: دار الثقافة والفنون، 1976.

الفار، مصطفى: *مدينة اللد*. ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2009.

فؤاد، عباس وآخرون: معجم *الأمثال الشعبية الفلسطينية*. ط16، عمان: دار الجليل للنشر، 1989.

فريحة، أنيس: *ملاحم وأساطير من أوغاريت(رأس شمرا)*. بيروت: دار النهار للنشر والتوزيع، 1980.

فريزر، جيمس: *أدونيس أو تموز*. ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، ط3، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982.

فريزر، جيمس: *الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين*. ترجمة: نايف الخوص، ط2، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1998.

قاسم، نادر وندى، ديانا: الحكاية الشعبية في شعر وليد سيف. *مجلة جامعة النجاح الوطنية*، المجلد(30)، العدد(6)، 2016.

القاسم، نبيه: *الحركة الشعرية الفلسطينية في بلادنا*. ط1، كفر قرع: 1985.

القزويني، زكريا: *عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات*. ط1، بيروت: مؤسسة الأعلمي، 2000.

قطامش، عبد المجيد: *الأمثال العربية*. ط1، دمشق: دار الفكر، 1988.

قطوس، بسام: *المدخل إلى مناهج النقد المعاصر*. ط1، الاسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2006.

قلعة جي، عبد الفتاح: رموز وأساطير في الموروثات الشعبية. *مجلة التـــراث العربـــي*، المجلـــد(17)، العدد(68)، 1997.

كنعان، توفيق: الاعتقاد بالعفاريت. *مجلة الفنون الشعبية*، دائرة الفنون والثقافـــة، عمـــان، المجلـــد(3)، العدد(4)، 1974

كنعان، توفيق: *الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين*. رام الله: وزارة الثقافة، 1998.

كنعان، توفيق: *الكتابات الفلكلورية*. بيرزيت: دار علوش للطباعة والنشر، 1998.

كنعان، توفيق: الينابيع المسكونة بالجن وعفاريت الماء في فلسطين. *مجلة التراث والمجتمـــع*، جمعيـــة إنعاش الأسرة، المجلد(3)، العدد(2)، 1976.

كناعنة، شريف: الثقافة والهوية. رام الله: مؤسسة مواطن، 2011.

كناعنة، شريف: الحطاب *حكاية شعبية فلسطينية*. ط1، رام الله: دار الشروق، 2004.

كناعنة، شريف: *من نسي قديمه تاه*. ط1، عكا: مؤسسة الأسوار، 2000.

كناعنة، شريف ومهوي، إبراهيم: *قول يا طير*. ط3، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2008.

كوت، ميشيل: *التراث الثقافي للماء*. ط2، المجلس الدولي للآثار والمواقع، 2019.

لابات، رينيه وآخرون: *سلسلة الأساطير السورية*. ترجمة: مفيد عرنوق، ط2، دمشق: دار علاء الـــدين للنشر والتوزيع، 2006.

لوباني، حسين: معجم *الأمثال الفلسطينية*. ط1، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1999.

الماجدي، خزعل: *الدين السومري*. ط1، عمان: دار الشروق، 1998.

محمد، إيمان: *البطل في الحكاية الشعبية الفلسطينية*. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2012.

مسعود، ميخائيل: *الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام*. بيروت: دار العلم للملايين.

مرشود، لطفي: *الشاعر الفلسطيني محارب نيب: حياته وشعره*. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2004.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: *لسان العرب*. بيروت: دار صادر، 1994.

مورتكات، أنطوان: *تاريخ الشرق القديم*. تعريب: توفيق سليمان وآخرون، (د.ن)، (د.ت).

موسى، إبراهيم: صوت التراث والهوية...دراسة في التناص الشعبي في شعر توفيق زياد. *مجلة جامعة دمشق*، المجلد(24)، العدد(1+2)، 2008.

موسى، أحمد: تراث الموسيقا الشعبية الفلسطينية – خصائصه ومقوماته وطرق الحفاظ عليه. *مجلة جامعة النجاح*، فلسطين، المجلد(23)، العدد(1)، 2009.

ميشيل كوت: *التراث الثقافي للماء في الشرق الأوسط والمغرب العربي*. ترجمة: فراس عبد الهادي ومنار حماض، ط2، منظمة الأمم المتحدة: المجلس الدولي للآثار والمواقع، 2019.

الناشف، خالد: في الذاكرة. *مجلة الدراسات الفلسطينية*، المجلد(13)، العدد(50)، 2002.

النصار، حسين: *الشعر الشعبي العربي*. ط2، بيروت: منشورات إقراء، 1980.

نطور، عبد القادر: الأغنية الشعبية في الجزائر: منطقة الشرق الجزائري نموذجا. رسالة دكتوراة، جامعة منتوري، الجزائر، 2009.

نمر، عبد الرحمن: *الحكاية الشعبية: منصور بن ناصر*. نابلس: منشورات الدار الوطنية للترجمة والطباعة والنشر، 2000.

نهاري، حنان والغازي: *ترجمة الحكاية الشعبية من الموروث الجزائري: بقرة اليتامى انموذجا*. رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر، الجزائر، 2015.

أبو هدبة، عبد العزيز وآخرون: *المجتمع والتراث الفلسطيني: قرية ترمسعيا*. البيرة: جمعية انعاش الأسرة، 1987.

الوجود، ثناء: *رمز الماء في الأدب الجاهلي*. ط1، مصر: مكتبة الشباب، (د.ت).

يونس، عبد الرحمن: *الحكاية الشعبية*. ط1، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1968.

المواقع الإلكترونية

جبران، حسن: *عنصر الماء بين المعتقدات الدينية والممارسات الاجتماعية في المجتمعات المغاربية*. مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 18\ أكتوبر: https://www.mominoun.com/articles.

حسين، عماد: *عليك الأمان...العيون المسكونة بالأرواح*. موقع متـرا، 3\يوليو 2020: https://metras.co/

المقابلات

الحاجة لطيفة، العمر(73) سنة، من سكان قرية عسلة في محافظة قلقيلية.

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

WATER SPRING IN PALESTINIAN LITERATURE: ANALYTICAL STUDY

By
Zain Dawod

Supervisor
Dr. Nader Qasem

This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arabic Language and Literature, in the Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine.

2023

WATER SPRING IN PALESTINIAN LITERATURE: ANALYTICAL STUDY

By
Zain Dawod
Supervisor
Dr. Nader Qasem

Abstract

The forms of folklore reflect the beliefs of peoples, so scholars have been interested in their forms, their identity features. Actually, the Palestinian civilization, like other civilizations, has an ancient balance of folklore, which is a signifier and a symbol of its identity and its roots in the depths of history.

It has expressed many inherited beliefs about many phenomena and events, relating to the life of the Palestinian, and the surrounding environment. The Palestinians have woven many beliefs around it, and practiced many rituals around it. Hence, this study aims to shed light on the presence of the springs of water in the Palestinian folklore, by tracing the roots of those beliefs in ancient civilizations. Furthermore, it traces itsforms in the Palestinian folklore including the tale, popular songs, and the parable by identifying the significance of this psychological, social, religious, and mythological presence.

To achieve the objective of the study, it has followed the inductive descriptive approach, which combines a review of what the scholars dealt with on the dimensions of the subject, and extrapolation and analysis of popular literature texts. to reach general conclusions.

It consists of four chapters; the first chapter deals with the springs of water in the popular culture in ancient civilizations by tracing its legendary indications as well as the ancient beliefs related to them and their practices.

The second chapter deals with the springs of water in the Palestinian popular beliefs in which the researcher deals with the down-rooted popular beliefs in the Palestinian popular awareness as well as the inherited practices the Palestinians believed in and reflected in their actions in the presence of water springs.

In the third chapter, the researcher depicts the presence of water in the forms of the Palestinian literary forms by projecting samples of popular songs and stories in which the springs of water have been an element in their texts. By analyzing these texts, the researcher has focused on their themes as well as the beliefs employed in them.

In the fourth chapter, the researcher tackles the image of the springs of water in the inherited literary works and its indications by talking about the psychological, social, religious and legendary indications in the use of the springs of water in the forms of popular literary forms.

It has been concluded that the presence of the springs of water in the popular heritage and its beliefs intersected with ancient beliefs. The core of these beliefs is the belief that the gods, souls or the Jinn control the water springs. This explains that Palestinians resort to the springs of water in the hope for fertility, blessing and healing or a dire wish to protect others. In order to guarantee the practice of these rituals, the impact of these rituals in the presence of the springs of water has had psychological, social, religious and legendary indications inspired from the Palestinian popular culture.

Keywords: water springs, the Palestinian cultural heritage